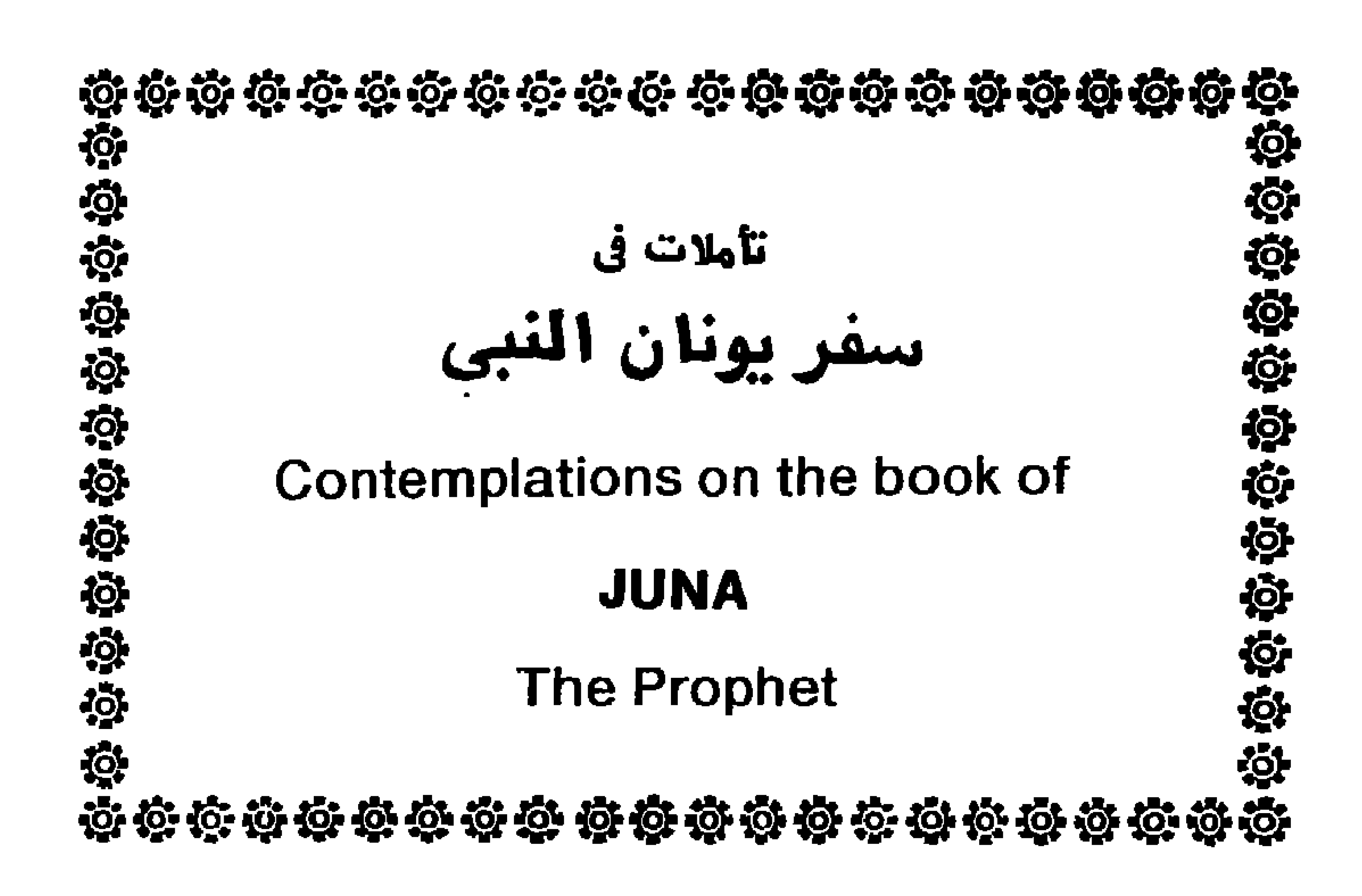
البابا شنوده الثالث

تأملات في سفر
يونان النبي

اهداءات ٢٠٠٢

بطريركية الأقباط الأرثوذكس

الاسكندرية



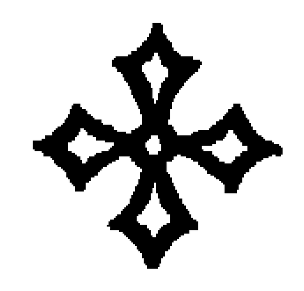
تأملات فى

سفر يونان النبى

Contemplations on the book of

JUNA

The Prophet

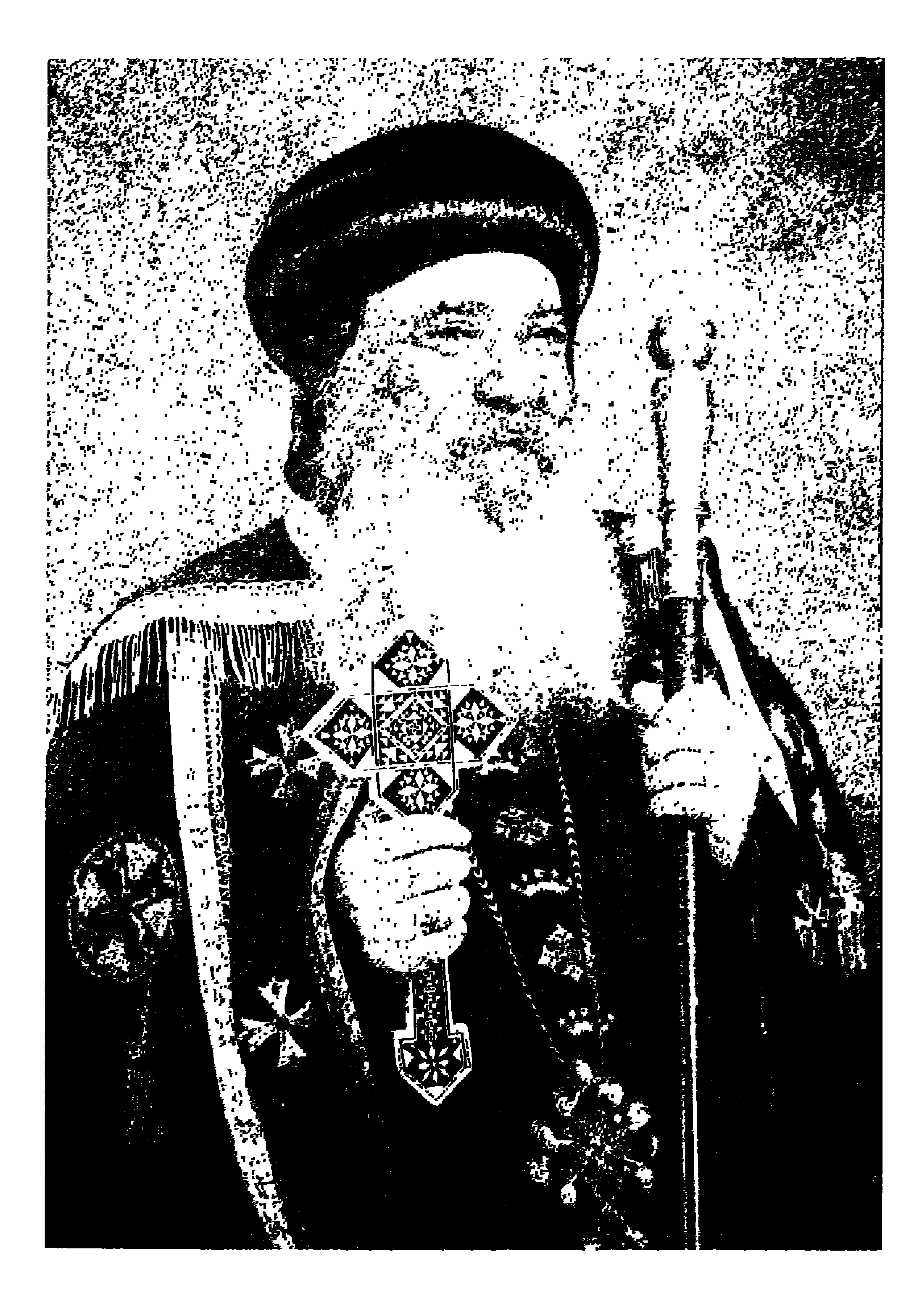


البابا شنودة الثالث

by H. H. **Pope Shenouda III**

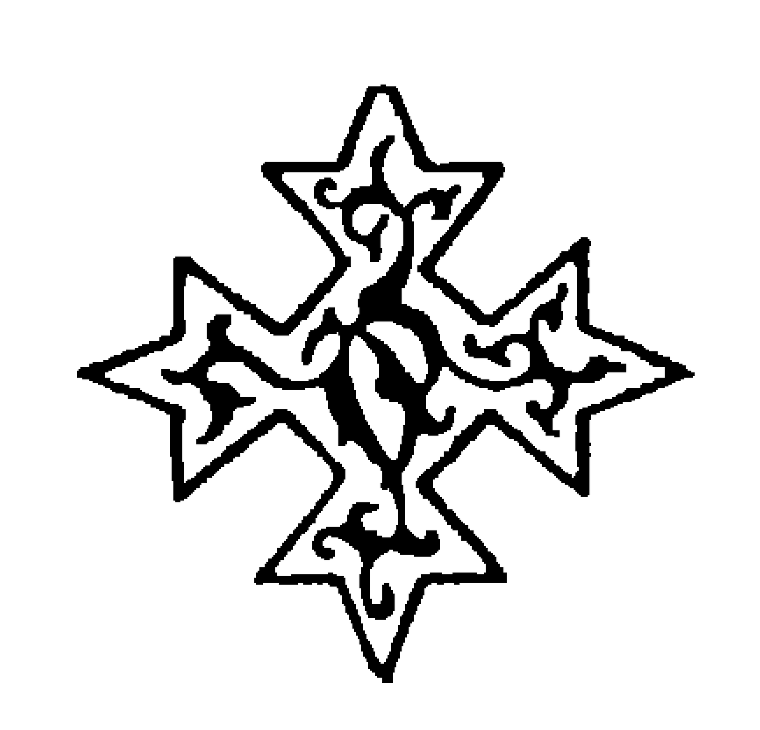
9th Print — الطبعة التاسعة

Jan 1997 — يناير ١٩٩٧



صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم
الأنبا شنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

فهرس



مقدمة الطبعة الأولى

لسنا نجد سفرا أحبه قداسة البابا شنوده الثالث، وتحدث فيه متأملا فى دروسه الروحية، مثل سفر يونان النبى، ويليه سفر أيوب الصديق.

وتحدث قداسته عن يونان النبى فى أماكن عدة وعلى مدى سنوات طويلة: تكلم عنه فى الكلية الاكليريكية سنة ١٩٦٢، وفى امبابة سنة ١٩٦٣، وفى الاسكندرية سنة ١٩٦٤، وفى النخيلة سنة ١٩٦٥، وفى القاعة المرقسية سنة ١٩٦٦، وفى دير السريان سنة ١٩٦٨.

ولقد جمعنا لك هذه المحاضرات جميعها من كافة مصادرها، حتى نقدم لك مادة متكاملة عن التأملات فى هذا السفر، راجين أن تكون هذه خطوة أولى فى نشر تأملات قداسة البابا شنوده الثالث فى أسفار العهد القديم التى يتولى تدريسها بنفسه فى الكلية الاكليريكية.

لجنة أصدقاء الكلية الإكليريكية

الفصل الأول

مشكلة النبي الهارب

مقدمة

ان سفر يونان النبى مملوء بالتأملات الروحية الجميلة . وهدفنا فى هذه المحاضرات أن نعرض لهذا السفر من الناحية الروحية البحتة وليس من جهة الجدل اللاهوتى . فسبيلنا هنا هو الاستفادة وليس النقاش . **نريد أن نأخذ من هذا السفر الجميل دروسا نافعة لحياتنا . نستفيد من عمل الله، ومن فضائل الناس، ومن أخطائهم . . .**

وما أجمل ما فعلته الكنيسة اذ اختارت هذا السفر ليكون مقدمة للصوم الكبير، يسبقه بأسبوعين، بقصة جميلة للتوبة، وللصوم، حتى نستقبل أيام الأربعين المقدسة بقلب نقى ملتصق بالرب .

والعجيب أن كثيرين من الذين يدرسون سفر يونان، يركزون على أهل نينوى وصومهم، وينسون ركاب السفينة، وينسون يونان النبى ومشكلته . فماذا كانت مشكلة يونان ؟



ان الله فى سفر يونان النبى، يريد ان يعرفنا حقيقة هامة هى **أن الأنبياء ليسوا من طبيعة أخرى غير طبيعتنا . بل هم أشخاص «تحت الآلام مثلنا» «يع ٥:١٧»، لهم ضعفاتهم، ولهم نقائصهم وعيوبهم، ومن الممكن أن يسقطوا كما نسقط .** كل ما فى الأمر أن نعمة الله عملت فيهم، وأعطتهم قوة ليست هى قوتهم وانما هى قوة الروح القدس العامل فى ضعفهم، لكى يكون فضل القوة لله وليس لنا كما يقول الرسول «٢كو ٤:٧» .

وقد كان يونان النبى من «ضعفاء العالم» الذين إختارهم الرب ليخزى بهم الأقوياء «١ كو ١:٢٧» . كانت له عيوبه، وكانت له فضائله . وقد اختاره الرب على الرغم من عيوبه، وعمل به، وعمل فيه، وعمل معه وأقامه نبيا قديسا عظيما لا نستحق التراب الذى يدوسه بقدميه . لكى يرينا بهذا أيضا انه يمكن أن يعمل معنا ويستخدم ضعفنا، كما عمل مع يونان من قبل . .

*** سقطات فى هروب يونان:**

سنرى بعضا من ضعف يونان فى موقفه من دعوة الرب . يقول الكتاب «وصار قول الرب الى يونان بن أمتاى قائلا: قم اذهب الى نينوى المدينة العظيمة، وناد عليها، لأنه قد صعد شرهم أمامى . فقام يونان ليخرج الى ترشيش من وجه الرب . فنزل الى يافا، فوجد سفينة ذاهبة الى ترشيش، فدفع أجرتها، ونزل فيها ليذهب معهم الى ترشيش من وجه الرب» .

وهنا نرى يونان النبى وقد سقط فى عدة أخطاء .

وكانت السقطة الأولى له هى المخالفة والعصيان .

* **لم يستطع أن يطيع الرب فى هذا الأمر، وهو النبى الذى ليس له عمل سوى أن يدعو الناس الى طاعة الرب .** عندما نقع فى المخالفة، يجدر بنا أن نشفق على المخالفين، واضعين أمامنا قول الرسول «اذكروا المقيدين كأنكم مقيدون أيضا مثلهم...» «عب ١٣:٣» . ان كان الله القدوس الذى بلا خطية وحده يشفق على الساقطين، فالأجدر بنا أن نشفق عليهم نحن الذين نسقط مثلهم . ومع ذلك فان يونان سقط، ولكنه مع ذلك لم يشفق...!

*** على أن سقطة المخالفة التى وقع فيها يونان، كانت تخفى وراءها سقطة أخرى أصعب وأشد هى الكبرياء ممثلة فى الاعتزاز بكلمته، وترفعه عن أن يقول كلمة وتسقط الى الارض ولا تنفذ...**

كان اعتزازه بكلمته هو السبب الذى دفعه الى العصيان، وحقا أن خطية يمكن أن تقود الى خطية أخرى، فى سلسلة متلاحمة الحلقات .

كان يونان يعلم أن الله رحيم ورؤوف، وأنه لابد سيعفو عن هذه المدينة اذا تابت وهنا سبب المشكلة!

— وماذا يضيرك يا يونان فى أن يكون الله رحيما ويعفو؟

— يضيرنى الشىء الكثير: سأقول للناس كلمة، وكلمتى ستنزل الى الأرض . سأنادى بهلاك المدينة بسبب خطاياها، ثم لا تهلك المدينة، وتسقط كلمتى، وتضيع كرامتى وهيبتى . هذا الرب لا استطيع السير معه على طول الخط . لو كان يثبت على تهديده، كنت اثبت معه! لكنى سأنادى بهلاك المدينة، فتتوب المدينة، ويعود الرب فيشفق . ولا تهلك المدينة . وتسقط كلمتى . فالأفضل انى لا أذهب حرصا على كرامتى الشخصية، وحرصا على سمعتى، وعلى هيبة النبوة!!

*** الى هذا الحد كان يونان متمركزا حول ذاته! لم يستطع أن ينكر ذاته فى سبيل خلاص الناس . كانت هيبته وكرامته وكلمته، أهم عنده من خلاص مدينة بأكملها..!**

كان لا مانع عنده من أن يشتغل مع الرب، على شرط أن يحافظ له الرب على كرامته وعلى هيبة كلمته ... من أجل هذا هرب من وجه الرب، ولم يقبل القيام بتلك المهمة التى تهز كبرياءه ...

وكان صريحا مع الرب فى كشف داخليته له إذ قال له فيما بعد عندما عاتبه «آه يا رب، أليس هذا كلامى إذ كنت بعد فى أرضى . لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، لأنى علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطىء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر» «٤:٢» .

*** وكان هرب يونان من وجه الرب يحمل فى ثناياه خطية أخرى هى الجهل وعدم الإيمان ...**

هذا الذى يهرب من الرب، إلى أين يهرب، والرب موجود فى كل مكان ؟! أيها النبى العظيم ألا تؤمن أن الله موجود فى كل مكان تهرب إليه ؟! إن الله موجود فى السفينة التى ستركبها، وفى البحر الذى يحمل السفينة، وفى ترشيش التى تود أن تهرب اليها . فأين تريد أن تختفى من وجه الرب ؟!

صدق داود النبى حينما قال للرب «أين أذهب من روحك؟ ومن وجهك أين أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر، فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك» «مز ١٣٩: ٧-١٠»

أما يونان فكان مثل جده آدم الذى ظن أن يختفى من وجه الرب وراء الشجر ...

أكان يونان يظن أن الله غير موجود فى السفينة أو فى البحر، وأنه يمكنه أن يفلت من يده ؟! أليس فى هذا منتهى الجهل وعدم الايمان بقدرة الله غير المحدودة ؟! أم تراه عملا طفوليا لجأ اليه انسان حائر لا يعرف كيف يتصرف ؟! وما درى أن أمر الله سيلاحقه فى كل موضع ..! حقا أن الخطية تطفىء فى الانسان نور المعرفة، وتنسيه حتى البديهيات!

وجد يونان فى يافا سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها، ونزل فيها ...

والعجيب أن الخطية كلفته مالا وجهدا . دفع أجرة للسفينة ليكمل خطيته ... أما النعمة فننالها مجانا ... عجيب أن نتعب فيما يضرنا، ونبذل وننفق . لعلها كانت بركة ليونان لو أنه لم يكن يملك دراهم فى ذلك الوقت تساعده على السفر والعصيان ...

عندما دفع يونان أجرة السفينة خسر خسارة مزدوجة: خسر ماله، وخسر أيضا طاعته ونقاوته ...

هذه فكرة عن أخطاء يونان فى هروبه وعصيانه، فماذا كان موقف الله من ذلك؟

العجيب أن الله استخدم عصيان يونان للخير. حقا إن الله يمكنه ان يستخدم كل شىء لمجد اسمه...



لقد عصى يونان أمر الرب، وهرب راكبا السفينة، ولكن الله الذى «يخرج من الآكل اكلا ومن الجافى حلاوة» «قض ١٤:١٤»، الله الذى يستطيع أن يحول الشر الى خير، استطاع أيضا أن يستفيد من عصيان يونان...

ان كان بسبب طاعة يونان سيخلص أهل نينوى، فانه بعصيان يونان يمكن أن يخلصُ أهلَ السفينة...

فى عصيان يونان نزل الى السفينة، وكان للرب شعب فى تلك السفينة. كان له اناس فيها يحبهم الرب ويبحث عن خلاصهم. هم أمميون كأهل نينوى ومحتاجون الى الخلاص مثلهم. فليكن خلاصهم عن طريق عصيان يونان. ان يونان أداة فى يد الرب، يكسب بطاعتها وبعصيانها ... وكأن الله يقول له: هل تظن يا يونان أنك قد هربت منى؟ كلا. **أنا سأرسلك الى ركاب السفينة، ليس كنبى، ولا كمبشر، ولا كصوت صارخ يدعو الناس الى التوبة، وانما كمذنب وخاطىء وسبب إشكال وتعب للآخرين، وبهذه الصورة سأخلصهم بواسطتك.**

وهكذا تكون بركة فى ذهابك، وبركة فى هروبك. تكون بركة وأنت مهاب كنبى أمام أهل نينوى، وبركة وأنت ملقى فى البحر كمذنب أمام أهل السفينة ... بك سأنفذ مشيئتى فى أية صورة كنت. حتى وأنت فى بطن الحوت، لا مع أهل نينوى ولا مع ركاب السفينة ... وأنت وحدك فى بطن الحوت سأجعلك رمزا لموتى وقيامتى، فيذكر الناس قصتك ويتعلمون...

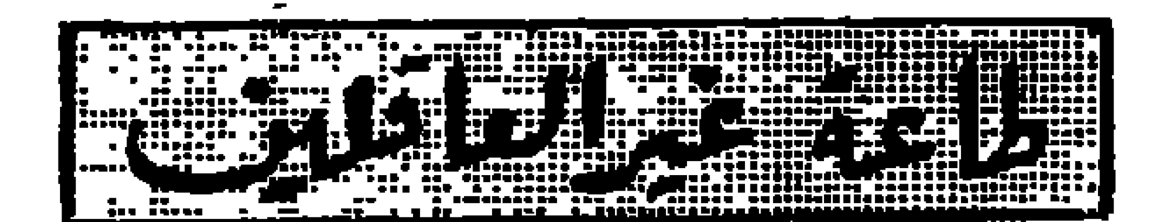
هل ركبت البحر فى هروبك يا يونان؟ اذن فقد دخلت فى دائرة مشيئتى أيضا. لأننى املك البحر كما أملك البر، كلاهما من صنع يدى. وأمواج البحر ومياهه وحيتانه تطيعنى أكثر منك كما سترى...

حقا إن الله صانع الخيرات، يمكنه أن يصنع خيرا من كل شىء. يمكنه أن يستفيد من جبن بيلاطس ومن خيانة يهوذا، فيعملان على غير قصدهما فى قضية الخلاص!! كل شىء يدخل فى يد الله، لابد أن يخرج منه خير. والله «يربح على كل حال قوما» وكما قال الرسول «كل الاشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله». «رو ٢٨:٨».

لذلك يا أخى حاول أن تستفيد من كل الأحداث التى تمر بك، ومن كل

الضيقات. استفدْ من خيانة الصديق، ومن عصيان الابن. استفد من المرض كما من الصحة. كن مثل الله الذى يخرج من الجافى حلاوة...

نلاحظ أيضا فى سفر يونان، أنه كما استخدم الله من أجل تنفيذ مشيئته عصيان يونان وطاعته، **كذلك استخدم الكائنات غير العاقلة، فكانت فى طاعته أكثر من النبى.**



طاعة غير العاقلين

لقد أخجل الرب يونان النبى بطاعة أهل نينوى، وببر أهل السفينة وإيمانهم، وأيضا بطاعة الجمادات والمخلوقات غير العاقلة. **ومن الجميل أننا نرى كل هؤلاء فى ارساليات الهية وفى مهمات رسمية أدوها على أكمل وجه وأفضله.**

فما هى هذه الكائنات غير العاقلة التى كانت عناصر نافعة فى إتمام المشيئة الإلهية؟

* عندما ركب يونان السفينة، يقول لنا الوحى الإلهى «فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر، فحدث نوء عظيم فى البحر حتى كادت السفينة تتكسر» «١:٤».

لقد أدت الريح واجبها، وكانت رسولا من الرب، قادت الناس إلى الصلاة. فصرخ كل واحد إلى إلهه. دخل النبى إلى السفينة، ولم يهتم بأن يدعو الناس إلى الصلاة. أما هذه الريح العاصفة، فقد نجحت فى ما فشل فيه هذا النبى ... وتحقق فيها قول داود فى المزمور «الريح العاصفة الصانعة كلمته» «مز ١٤٨:٨». ونحن نتغنى بهذا الوصف الجميل مرتلين به كل يوم فى التسبحة فى الهوس الرابع متأملين فى هذه الريح «الصانعة كلمته»!!

* **وكما أدت هذه الريح الشديدة مهمتها فى أول القصة كذلك أدت مهمة أخرى فى آخر القصة،** إذ يقول الكتاب «وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعد ريحا شرقية حارة. فضربت الشمس على رأس يونان فذبل فطلب لنفسه الموت..» «٤:٨». وهكذا دخل مع الله فى تفاهم انتهى إلى المصالحة مع الله، بسبب هذه الريح «الصانعة كلمته». أليس من الجميل أن تأخذ هذه الريح نفس الوصف تقريبا الذى أُطلق على ملائكة الله المقتدرين قوة «الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه» «مز ١٠٣:٢٠»!!

* **وكما أستخدم الله الريح، استخدم الحوت أيضا لتنفيذ مشيئته:** وفى ذلك يقول الكتاب أولا «وأما الرب فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان، فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال» «١:١٧». ثم يعود فيقول «وأمر الرب الحوت، فقذف يونان إلى البر» «٢:١٠». وهكذا كان الحوت ينفذ أوامر إلهية تصدر إليه، وينفذها بدقة وحرص حسب مشيئة الرب.

*** وكما أستخدم الله الريح والحوت، استخدم الشمس والدودة واليقطينة.** ويقول الكتاب «فأعد الرب الاله يقطينة فارتفعت فوق يونان ...» «٤:٦» ويقول «ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر فى الغد، فضربت اليقطينة فيبست» «٤:٧» وأيضا «أن الله أعد ريحا شرقية حارة فضربت الشمس على رأس يونان» «٤:٨».

ان كل الكائنات فى يدى الرب، يستخدمها وفق مشيئته حسبما يريد، وهى فى يده مطواعة خاضعة ... يقول لها «اذهبى يا ريح، اذهبى يا شمس ... اذهبى يا موجة، اذهبى يا دودة ...» فيتم كل شىء، دون نقاش ... كلهم رسل أوفياء. وهكذا استخدم الله الجماد ليقنع الانسان، واستخدم غير العاقل ليخزى العاقلين ...

فى سفر يونان كانت كل هذه الكائنات مطيعة للرب. الوحيد الذى لم يكن مطيعا، هو الانسان العاقل، يونان ... الذى منحه الله حرية ارادة يمكنه بها أن يخالفه!

حقا أن الانسان كثيرا ما يستخدم عقله وحريته استخداما رديئا. وكثيرا ما يثق الانسان بحكمته وثوقا يصطدم فيه بمشيئة الله. لذلك نصحنا الكتاب بقوله «وعلى فهمك لا تعتمد» «أم ٣:٥». وعلل ذلك بهذه العبارة الحكيمة التى وردت مرتين فى سفر الأمثال «هناك طريق تبدو للانسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت» «أم ١٤:١٢»، «أم ١٦:٢٥». الانسان مغرور دائما فى حكمته وفى حسن تصرفه. ولذلك يقول الكتاب «كل طرق الانسان مستقيمة فى عينيه «أم ٢١:٢». حتى الجاهل أيضا «أم ١٢:١٥».

هكذا الانسان. أما باقى الكائنات فلا تعرف غير الطاعة. على أنه لم يكن كل انسان غير مطيع فى سفر يونان، بل كل الناس أطاعوا، ماعدا يونان، النبى!

ولعل أهم طاعه يطلبها منا الرب هى الطاعة فى الارساليات المتعبة، وقد أعطانا مثالا بطاعة باقى الكائنات.

لعلنا نسر ونبتهج عندما يرسلنا الله برسالة مفرحة، وينطبق علينا قول الكتاب «ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات» «رو ١٠:١٥». نفرح بهذه الارساليات لما سيصادقنا فيها من مجد باطل نتيجة لمدح الناس وشكرهم. أما الرسالة المتعبة فهى صعبة. وعندما ننفذها، انما نفعل ذلك من أجل الله وحده.

ما أصعب رسالة يطلب فيها الله من أحد أولاده أن ينادى على مدينة بالهلاك. ابراهيم أبو الآباء تشفع من أجل سدوم طالبا عدم إهلاكها مع أنه لم يكن هو المكلف بالمناداة بإهلاكها ولكنه لم يحتمل سماع الأمر ولو من بعيد...

على أن يونان لم يهرب من المهمة اشفاقا على نينوى، من الهلاك، بل على العكس هرب خوفا من أن تبقى المدينة ولا تهلك... لم يقل كلمة اشفاق، ولم يتشفع فيها كابراهيم عندما تشفع في سدوم. بل أنه حزن واغتاظ واغتم غما شديدا، ورأى ان الموت هو أفضل لنفسه من الحياة، كل ذلك لأن الله لم يتمم انذاره ويهلك المدينة ... هل كان في قلب يونان شيء من القسوة أو الغلظة؟ أم ان اعتزازه بكلمته طغى على كل شيء ... حتى على الحب والاشفاق؟ لست أدرى.

أما الكائنات الأخرى في سفر يونان فنفذت كل ما أمر به الرب، سواء كان مفرحا في ظاهره أو متعبا، يكفى أنه امر قد صدر من فم الله...

* أمر الله الريح أن تصدم السفينة بشدة حتى كادت تتكسر، ففعلت كما أمر. وكان كذلك. لم تقل ما ذنب هؤلاء البحارة البررة الآمنين، ولماذا نسبب لهم نوءا عظيما في البحر؟ كلا، اننا لسنا أحن من الله. وقد أثبت الله فعلا ان ذلك كان تدبيرا حكيما منه. يقود بها بحارة السفينة وركابها الى الايمان.

أراد الله للبحر أن يهيج فهاج، وأراد له أن يهدأ بعد القاء يونان فيه، فهدأ ... **ما أعجب الطبيعة المطيعة التى لا تعصى لله أمرا، كالانسان.**

* وأمر الله الحوت أن يبتلع يونان فابتلعه، دون أن يؤذيه، لأنه لم يأخذ أمرا من الله بأن يأكله. ثم أمر الله الحوت أن يقذف يونان الى البر، فقذفه الى حيث أراد الله.

انى أقف أحيانا في عجب، أتأمل كيف كانت هذه الكائنات تتلقى أوامرها من الله، كيف كانت تتفهمها وتنفذها. انها لا تعى ولا تدرك. ولكن الأمر يرجع الى مشيئة الله العاملة فيها...

* وكما أمر الحوت الضخم الكبير لكى ينفذ جزءا من الخطة الالهية، كذلك أمر الدودة البسيطة، أمرها أن تضرب اليقطينة فيبست ... ما أعجب هذا أن نرى حتى الدودة تكون جزءا من العمل الالهى المقدس الكامل ... حقا ما أجمل قول الكتاب «انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار» «متى ١٨: ١٠».

انها مشيئة الله منفذة كما يطلبها هو، لا كما تقترح الخليقة في جهالتها. وحكيم هو الذى يستسلم لمشيئة الله أيا كانت صورتها...

* يأمر الله اليقطينة لكى ترتفع وتكون ظلا على رأس يونان «لكى يخلصه من غمه» فتنفذ اليقطينة هذا الأمر العطوف. ويكلف الله الشمس أن تضرب على رأس يونان فيذبل ويشتهى الموت، فتفعل كما يأمر الرب ... انها ليست احن منه على يونان. لابد أن في ضربة الشمس فائدة ليونان وإلا ما كان الله قد أمر بها ... وكان كذلك.

حقا أن الطبيعة وكل الكائنات غير العاقلة، مثلها مثل الكائنات السمائية، من حيث إنها لا تعرف فى علاقتها مع الله سوى عبارة «لتكن مشيئتك»...

ليتنا نأخذ درسا من كل هؤلاء، وندرك نحن أيضا عمق عبارة «لتكن مشيئتك» فى حياتنا وحياة الناس. هذه العبارة التى فشل يونان فى ممارستها، ولم يستطيع أن يصل إليها الا بعد تجارب كثيرة وصراع مع الله، وعقوبات، واقناعات ... أخيرا استطاع الله أن يقنعه بخيرية المشيئة الإلهية، مهما كانت مخالفة لمشيئته الذاتية.

لقد خلق الله العقل نعمة للإنسان. ولكن هذا العقل كثيرا ما يقف حائلا بين الإنسان وحياة التسليم!

يحدث هذا إذا انفرد العقل بذاته، بعيدا عن الاستنارة بالروح القدس، وبعيدا عن الاتضاع الذى ينحنى به العقل خاضعا لمشيئة الله ... أمسك أحدهم برأسه بين يديه، وقال «هذه هى «تفاحة آدم» التى يتحدث عنها البعض»، يقصد أن عقله هو سبب كل سقطاته وتجاربه...

وليس العقل وحده هو الذى يقف ضد مشيئة الله، عندما يقتنع بأشياء أخرى تخالف ما يأمر به الرب، أو عندما يضع أوامر الرب فى بوتقة الفحص والتحليل ... إنما هناك أيضا العاطفة التى قد تشتهى أمورا يمنعها الرب عنها، فتقف هذه العاطفة أو هذه الشهوة ضد مشيئة الله...

ولذلك عندما يكون عقل الانسان وعاطفته فى يد الله، عندئذ تتفق مشيئة الانسان مع مشيئة الله. وتكون طاعة الانسان عن رضى واقتناع ومحبة لوصايا الله. وتكون طاعة الإنسان فرحة بوصايا الله وأوامره كمن وجد غنائم كثيرة، كما كان يفعل داود ... أما إذا تعارضت مشيئة الإنسان مع مشيئة الله، فلا بد أن يكون هناك خلل فى الانسان، إما فى طريقة تفكيره، وإما فى شهوات قلبه.

وفى حالة تعارض المشيئتين هذه، يكون أمام الانسان أحد طريقين للطاعة: أما أن يتضع الانسان، ويلوم ذاته، شاعرا بخطئه، محاولا أن يصلح داخله لكى يتقبل مشيئة الرب بفرح. وأما أن يغصب الانسان نفسه على الطاعة سواء فهم إرادة الرب أم لم يفهمها، رضى بها فى داخله أم لم يرض. المهم أنه لا يخالف ... وأن يقول للرب فى كل أمر «لتكن مشيئتك».

على أن يونان لم يستطع أن يقول للرب «لتكن مشيئتك». لم يستطع أن يتواضع أمام الرب، ولم يستطع أن يغصب ذاته على الطاعة. فاضطر الرب أن يتدخل بنفسه، كما سنرى فى حديثنا المقبل...

الفصل الثانى

بحارة أَمَيُوْف

كانوا أفضل منه النبى

ما أعجب أهل هذه السفينة التى ركبها يونان ... حقا كانوا أممين، ومع ذلك كانت لهم فضائل عجيبة فاقوا بها النبى العظيم . وفيهم تحقق قول الرب **«ولى خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغى أن آتى بتلك أيضا فتسمع صوتى . وتكون رعية واحدة وراع واحد» «يو ١٠:١٦»** .

يذكرنى أهل هذه السفينة بكرنيليوس قائد المائة، الذى كان فى مظهره رجلا أمميا بعيدا عن رعوية الله . ولكنه كان فى حقيقته رجلا تقيا خائفا الله هو وجميع بيته . وكان أيضا رحوما كثير الصدقة وكان «يصلى إلى الله فى كل حين» . وأستحق أن يظهر له ملاك فى رؤيا ويقول له «صلواتك وصدقاتك صعدت تذكارا أمام الله» . وأستحق أيضا أن يحل عليه الروح القدس هو وكل الذين معه أثناء كلام بطرس معه» «أع ١٠» ...

هناك كثيرون غير معروفين للناس فى عالم القداسة، ولكنهم معروفون عند الله باسمائهم . ومن هؤلاء كان أهل تلك السفينة، كانت فيهم كل الصفات الجميلة، واذ كان ينقصهم الايمان — عن جهل — رأى الله أن يمنحهم الايمان .

لعله تدبير إلهى أن ينزل يونان فى هذه السفينة بالذات، من أجله ومن أجل هذه السفينة ... لم يشأ الله أن يمضى إلى كورة بعيدة» ... العجيب أن الله أعد له المكان الذى يهرب اليه من وجه الرب، المكان الذى يناسبه، والذى يسمع فيه كلمة منفعة، والذى يقف فيه أمام وجه الله مرة أخرى، لكيما يرجعه اليه ... أعد له الله البيئة المقدسة التى تبكته على هروبه . ووجد نفسه وسط اناس افضل منه فى كل شىء، ما عدا وظيفة النبوة ..!



*** أول صفة جميلة فى بحارة هذه السفينة أنهم كانوا رجال صلاة .**

لما صدمتهم الرياح الشديدة وكادت تكسر السفينة، يقول الكتاب «فخاف الملاحون، وصرخوا كل واحد إلى الهه . وطرحوا الأمتعة التى فى السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم» «١:٥» . نلاحظ هنا أنهم لجأوا إلى الله قبل تنفيذهم ما تتطلبه الحكمة البشرية لانقاذ الموقف . صلوا أولا ثم ألقوا الامتعة ليخففوا عن السفينة .. هم اذن

يضعون الصلاة فى مرتبة أعلى من مهارتهم البحرية، ويعتمدون عليها بالأكثر..

وعندما ايقظوا يونان، لم يقولوا له «قم ساعدنا فى التخفيف عن السفينة» . وانما قالوا له «قم اصرخ الى الهك».

كان كل بحارة السفينة وركابها يصلون. والوحيد الذى لم يكن يصلى فى ذلك الوقت هو نبى الله يونان!!

وحتى بعد أن أيقظوه، لم يقل الكتاب انه قام وصلى!

انه موقف مخجل حقا ..! كان يونان «قد نزل إلى جوف السفينة وأضطجع، ونام نوما ثقيلا»... عجيب أن يكون النبى العظيم نائما فى الوقت الذى كان فيه الأمميون يصلون! شىء مخجل ... ومما يزيد الخجل فيه أن يأتى اليه انسان أممى ليبكته قائلا «مالك نائما» .. ما هذا الكسل والتراخى واللامبالاة؟! ألا تقوم وتصلى كباقى الناس؟ «قم اصرخ إلى الهك، عسى أن يفتكر الاله فينا فلا نهلك»...

هل أنت حقا يا يونان تهتم بكرامتك الشخصية؟ أين هى هذه الكرامة، بينما أنت الوحيد النائم، والأمميون حولك يصلون، ويوبخونك على نومك؟!

عجيب حقا هو الرب اذ يبكت أحد أنبيائه برجل أممى: لو أن الله أرسل له ملاكا ليبكته أو حتى نبيا مثله لبدا الأمر معقولا، فان لم يبكته ملاك أو نبى، فليكن تبكيته على يد مؤمن عادى. أما أن يبكته رجل أممى، وثنى، لا يعرف الله، فهذا هو منتهى الاذلال. انه اشعار له بضآلته وعمق خطيته...

على أيه الحالات، فان الله اذ يعرف أن التبكيت نافع حتى للأنبياء، لم يحرم نبيه من نعمة التبكيت، وشاء ان تكون من أممى لتكون أعمق أثرا.

ولكن هذه هى طريقة الله فى التبكيت:

عندما اراد الله أن يبكت شعبه، أرسل إليهم الأمم فسبقوهم إلى الايمان وبكتوهم. وقال لهم الرب «يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون فى حضن إبراهيم. أما بنو الملكوت فيطرحون فى الظلمة الخارجية «متى ٨:١١». بكتهم بالمرأة الكنعانية التى هى من شعب ملعون، وبالسامرى الصالح الذى هو من جنس منحرف فى الايمان والعقيدة والتقاليد. ومع ذلك صار هذا السامرى افضل من الكاهن ومن اللاوى خدام الله...

بكت الفريسى اكثر الناس افتخارا، بالعشار المحتقر فى خطاياه، وبالمرأة الزانية التى بللت قدمى الرب بدموعها، وكانت اكثر فضيلة وحبا من الفريسى...

وبنفس الطريقة بكت الرب يونان النبى العظيم، بأهل السفينة الأمميين الذين وبخوه لكى يقوم ويصلى مثلهم...

عجيب أن يونان كان فى ذلك الوقت نائما نوما ثقيلا ... من عمق نومه، لم تستطع أن توقظه الرياح الشديدة، والنوء العظيم، واهتزاز السفينة التى كادت تنكسر!!

كيف خالف الله، وكسر وصيته وهرب منه، وأستطاع أن ينام نوما ثقيلا؟! لابد أن ضميره كان قد نام أيضا، نوما ثقيلا، مثله ...

هناك من يعصى الله ويخاف ويضطرب، أو يقلق ويأرق وتظل خطيئته تطارده وتتبعه ... أما يونان فهرب من الله ولم يبال. وبكل أعصاب مستريحة وفكر هادىء، أمكنه أن ينام نوما ثقيلا! يخيل إلى أن وراء هذا النوم سببا. لا شك أن يونان على الرغم مما فعله كان يبرر ذاته من الداخل، ويبرىء ذاته. وهكذا لم يشعر بالاثم ولم يقلق، فنام ...

*** صفة جميلة ثانية نجدها فى أهل السفينة انهم كانوا يبحثون عن الله.**

لم يقولوا ليونان فى تعصب لديانتهم «قم أصرخ إلى إلهنا». وإنما قالوا له «قم أصرخ إلى إلهك، عسى أن يفتكر الاله فينا فلا نهلك» ... وهذا يدل على أنهم كانوا يبحثون عن الله، ولا يعرفون أين يوجد ... كانوا مضطربين فى وسط عقائد كثيرة، لا يعرفون أين الاله الحقيقى، ولكنهم يحبون ويؤمنون به دون أن يدركوه ... لذلك كشف الله لهم ذاته فى قصة يونان ...

*** صفة جميلة ثالثة وهى أنهم كانوا رجال بساطة وايمان.** لم يكتفوا بالصلاة، وانما أيضا ألقوا قرعا. كانوا يؤمنون أن الله سيكشف لهم الحقيقة بتلك الطريقة، وقد كان ... ألقوا القرعة ليعرفوا «بسبب من حدثت تلك البلية» ...

اذ انهم فى تقواهم كانوا يشمئزون من بشاعة الخطية ويشعرون أنها سبب البلايا التى تحيق بالانسان. هم– كبحارة مهرة– لم يقولوا ان هذا النوء العظيم حدث بسبب البحر وطبيعة المياه وتقلبات الرياح، وإنما أيقنوا أن ذلك بسبب خطية ارتكبها أحدهم، ويطالب بها العدل الالهى. فبحثوا «بسبب من تلك البلية».

ووقعت القرعة على يونان ... حقاً أن الله صالح وحنون ... حتى لو صلى إليه أناس أميون، بضمير مستقيم، طالبين ارشاده، فأنه يسمع لهم ويستجيب ... ووقوع القرعة على يونان، كشف صفة أخرى جميلة فى نوتية تلك السفينة الأتقياء ...

*** كانوا أيضا أشخاصا عادلين لا يحكمون على أحد بسرعة. بل إتصفوا بطول الاناة، وبالفحص وإرضاء الضمير.**

كان يمكنهم بعد وقوع القرعة على يونان، أن يتخلصوا منه فى الحال، وبخاصة انه كان يبدو غريبا ... كان نائما والكل يصلون. وكان غريبا لا يعرفون له أصلا. وقد كشفته القرعة اذ وقعت عليه بعد صلوات صرخوا بها جميعهم إلى الله.

الا انهم أرادوا أن يريحوا ضميرهم، فحققوا معه . قالوا له: أخبرنا من أنت؟ وما هو عملك؟ ومن أين أتيت؟ وما هي أرضك؟ ومن أي شعب أنت؟ وبسبب من هذه المصيبة التي حلت علينا؟.. أسئلة كثيرة..

حقا أنه من فضائل هؤلاء الناس طول الأناة العجيبة ...

أنني متعجب من عدلهم ومن حساسية ضميرهم. السفينة موشكة على الغرق، والبحر هائج، وبين لحظة وأخرى يمكن أن يهلكوا ... ومع ذلك يصرون على التحقيق مع يونان، لكي يريحوا ضميرهم ولا يظلموا الرجل ... وهم يفعلون ذلك على الرغم من كل الأدلة التي تحت أيديهم. ولكنهم مؤمنون أنه لا يجوز لهم أن يصدروا حكما بدون محاكمة، وأنه لا يليق بهم أن يحكموا على انسان دون أن يعطوه فرصة لكي يتكلم عن نفسه...

أما يونان فاعترف لهم وقال «أنا عبراني، وأنا خائف من الرب اله السماء الذي صنع البحر والبر، وبمجرد سماعهم ذلك الكلام خافوا خوفا عظيما..

انهم قوم بسطاء لا يكذبون غيرهم.

هل الهك يا يونان هو اله البحر والبر؟ .. نحن الآن في البحر، اذن فنحن في يد الهك أنت. ونحن نريد الوصول الى البر، والهك هو اله البر ايضا، كما هو اله البحر، اذن فنحن في يديه. لذلك خافوا ووبخوه قائلين «لماذا فعلت هذا؟!». وللمرة الثانية يتبكت النبي العظيم من الأمميين. حسنا أوجده الله في هذه السفينة التي يوبخه ركابها. دون أن يستحوا منه كنبي...

*** وكما كان ركاب السفينة عادلين، كانوا أيضا في منتهى الرحمة والشفقة:**

فبعد ثبات التهمة على يونان، واعترافه أمامهم بذنبه وبأنه هارب من الرب، وتأكدهم أن كل المصيبة التي حلت عليهم كانت بسببه، لم يشاءوا أن يتخلصوا منه على الرغم من أن «البحر كان يزداد اضطرابا». بل فكروا في حل لإنقاذ هذا الانسان الذي تسبب في اتعابهم...

كانوا يوقنون أنه مذنب ويستحق الموت. ومع ذلك لم يكن سهلا على هؤلاء القوم الرحماء، أن يميتوا انسانا حتى لو كان هو السبب في ضياع متاعهم وأملاكهم وتهديد حياتهم بالخطر.

لم يكن سهلا عليهم ان يضحوا به بسهولة أو بسرعة. فقالوا له «ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا؟» ... ابحث معنا عن حل، لأن اضطراب البحر كان يزداد بطريقة مقلقة ... فقال لهم يونان «خذوني واطرحوني في البحر، فيسكن البحر عنكم، لأني عالم انه بسببي هذا النوء العظيم عليكم» ... القوني في البحر، فليس هناك حل للمشكلة غير هذا ... ولكن مع كل هذا، لم يكن ضميرهم مستريحا لالقائه...

إنى متعجب من شدة رحمة هؤلاء الناس الأبرار. لقد عرفوا سبب مشكلتهم، وعرفوا علاجه، ولكن ضميرهم لم يساعدهم على التنفيذ. كيف نقتل الرجل، حتى لو كان دمه حلالاً لنا؟! وحتى لو كان خاطئا يستحق الموت ... وهكذا جذفوا بكل قوتهم ليرجعوا السفينة إلى البر، فلم يستطيعوا لأن البحر كان يزداد اضطرابا عليهم...

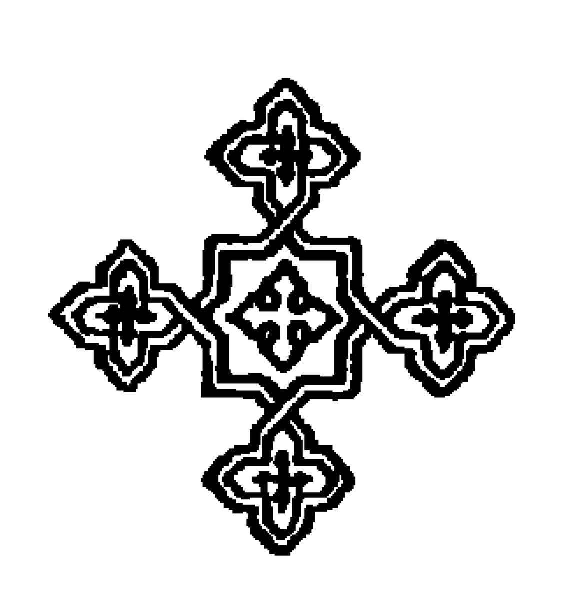
لقد بذلوا كل جهدهم لإنقاذ الرجل الخاطىء من الموت، ولكن دون جدوى. كانت مشيئة الرب أن يلقى يونان فى البحر ... وهكذا أسقط فى أيديهم. ولكن لكى يريحوا ضمائرهم، صرخوا الى الرب وقالوا «آه يا رب، لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل. ولا تجعل علينا دما بريئا. لأنك أنت يا رب فعلت كما شئت». وإذ تحققوا أن هذه هى مشيئة الله، وأنهم لا يستطيعون أن يقفوا ضد مشيئته، «أخذوا يونان وطرحوه فى البحر، فوقف البحر عن هيجانه»...

*** من كل ما سبق يتضح أن هؤلاء البحارة كان لهم ضمير حساس نقى، وأنهم أرادوا بكل حرص أن يقفوا أمام ضميرهم بلا لوم.**

لم يكن سهلا عليهم أن يرتكبوا خطية، مهما كانت العوامل الخارجية ضاغطة، ومهما كانت هناك أسباب تبرر الموقف. وقد كان موقفهم من يونان نبيلا جدا، ورحيما جدا، وموافقا لإرادة الله فيه.

*** وكانت لهؤلاء الناس قلوب مستعدة لعمل الله فيها:** كانوا يتلمسون إرادة الله لتنفيذها. ولما وقف هيجان البحر بالقاء يونان فيه، تأكدوا من وجود الله فى الأمر، فآمنوا بالرب، وذبحوا له ذبيحة، ونذروا له نذورا ... وفى إيمانهم بالرب، لم يؤمنوا فقط أنه هو الله، وإنما بتقديمهم للذبيحة أعلنوا أيضا إيمانهم بالدم والكفارة...

وهكذا كسب الله المعركة الأولى، وتمم خلاص أهل السفينة بعصيان يونان. بقيت فى خطة الله للخلاص مسألتان هامتان أخريان: وهما خلاص أهل نينوى، وخلاص يونان...



الفصل الثالث

يونان في بطن الحوت

ألقى يونان فى البحر، ولكنه لم يلق للموت ... كانت الإرادة الإلهية ما تزال ممسكة به، والله ما يزال عند خطته أن يرسل يونان إلى مدينة نينوى لإنقاذها...

— وهل ما يزال هذا الانسان يا رب يصلح لهذه الخدمة الكبيرة بعد كل ما صدر منه؟

— نعم، إن يونان هذا هو ابنى وحبيبى، ونبيى أيضا، وسأرسله إلى نينوى. إن كان قد أخطأ فانى سأصلحه، وأجعله صالحا للخدمة، وأنقذ نفسه، وأنقذ المدينة به ... هذا الحجر غير المصقول سأتعهده بالنحت، حتى أجعله صالحا للبناء...

حقا أن الله عجيب فى طول أناته. لا يغضب ولا يتخلى بسرعة عن خدامه الذين يخطئون.

لقد قبل بطرس بعد أنكاره وثبته فى رسوليته. ولكننا نحن البشر نتميز بسرعة فى الغضب، وسرعة فى العقوبة، وسرعة فى القطع. أما الله فليس كذلك.

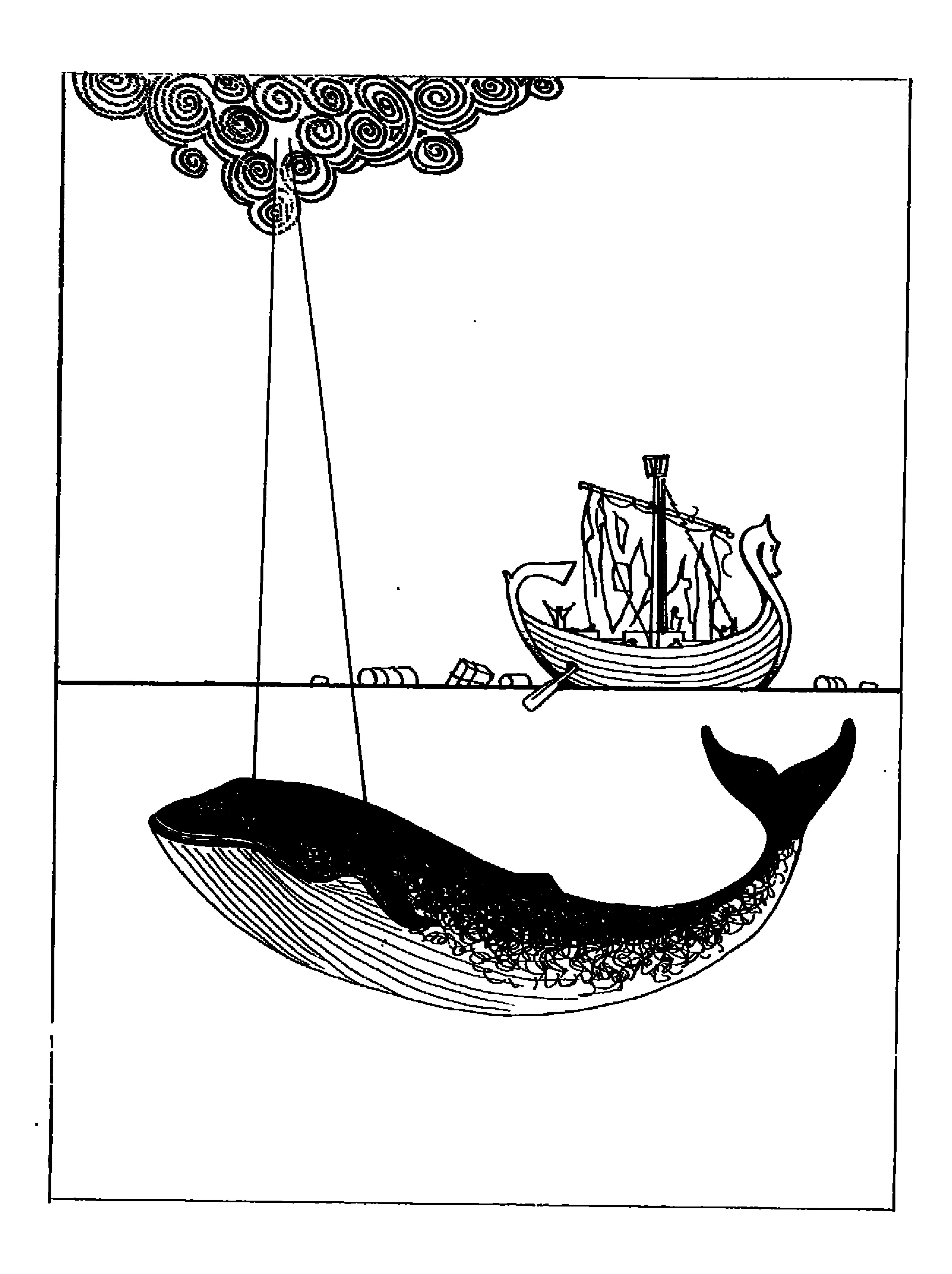
لقد استبقى يونان فى خدمته، وحفظه سليما ليتمم عمله. وعندما ألقى يونان فى البحر، استقبله إله البحر، ليحفظه من كل سوء.

عندما ألقى يونان فى البحر، تلقفته الأيدى الإلهية، وحملته فى رفق لكى لا يهلك، ولكى لا يغرق، أخذه الله ووضعه فى جوف حوت، ليحفظه آمنا هناك...

كان الله قد «أعد حوتا عظيما ليبتلع يونان» «١٧:١». لم يعده للإهلاك، وانما للحفظ ... لم يكن الحوت عقوبة وإنما كان صونا. كان يونان فى بطن الحوت أكثر أمنا وراحة مما لو ظل فى البحر، يكافح الأمواج، ويكافح البحر، ويكافح التعب والبرد والريح...

كان هذا الحوت مرسلا من الله، لينفذ الإرادة الإلهية التى كلف بها.

لم يكن له سلطان أن يأكله، أو يفرز عليه عصارات ويحلله ويمتصه. كلا، بل ابتلعه ليدخله إلى أحضانه الداخلية، ويحفظه حتى يصل إلى قرب هدفه. كان وسيلة مواصلات مجانية يصل بها يونان إلى مكان قريب من محطة النزول.



كأن يونان كان فى غواصة حصينة تمخر به البحر وهو فى جوفها تحت الماء ...
كان هذا الحوت مرسلا لانقاذ يونان من البحر وأهواله . انه كالتجارب يبدو مخيفا من الخارج، بينما تكمن فيه كل المنفعة ... كان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام سليما لا يقوى عليه الحوت، كما كان المسيح فى القبر ثلاثة أيام سليما لا يقوى عليه الموت .

هكذا أنت أيها الأخ المبارك . ان أعد لك الله حوتا عظيما ليبتلعك، فلا تخف، ولا تتضايق ولا تحزن، بل بارك الرب داخله كما فعل يونان .

ثق أن الحوت قد يبتلعك، ولكنه لا يستطيع أن يؤذيك . انه لا يستطيع أن يفعل بك شيئا بدون أذن الرب وسماحه ... ولا بد سيأتى الوقت الذى يأمره فيه الرب أن يقذفك الى البر كما كنت . أليس الله هو خالق الحوت، وبيده حياته وتوجيهه ؟! ان كنت يا أخى فى ضيقة، فاذكر حوت يونان. فتطمئن ... اذ تعرف أن الرب هو الذى هيأ هذا الحوت لك ليمنحك فضيلة معينة أو نعمة خاصة ...

حاذر من أن تشكو كلما ابتلعك حوت، فالحيتان فى بحر هذا العالم كثيرة ...
لاتقل: لماذا هذه المعاملة منك يا رب؟ لماذا تعد هذا الحوت العظيم فيبتلعنى ؟ وأين كنت يا رب عندما ابتلعنى ؟ ولماذا لم تنقذنى منه ؟ اعرف ان اجابة الله هى واحدة: لا تخف، يكفيك انك معى . حتى إن كنت فى بطن الحوت. فأنا معك. لا اهملك ولا أتركك . لا تخف يا أخى اذن . تذكر قول البار الأنبا بولا «من يهرب من الضيقة فقد هرب من الله ...» .

كان ذلك الحوت ضخما جدا، كان حوتا عظيما... توجد حيتان كبيرة، كل واحد منها كأنه حجرة واسعة، يستطيع أن يبلع قاربا بمن فيه ... وعندما ابتلع الحوت يونان، نظر واذا به فى صالة فسيحة، أو فى بركة ماء . فماذا يعمل؟ رجع الى عقله، وركع وصلى فى جوف الحوت . . ونظر اليه الرب وابتهج:

آه يا يونان، اننى أريد منك هذه الصلاة من بداية القصة . كل ما حدث كان القصد منه ان أجعلك تركع، ولو فى جوف حوت، لنتفاهم ...

منذ زمن وأنا أريد أن أكلمك وأتفاهم معك، ولكنك غضبت وهربت ورفضت أن نتفاهم . أما الآن فانها فرصة مناسبة لنصطلح ...
وركع يونان وصلى للرب، ورجع مرة أخرى الى طقسه النبوى . أخذ صورته الأولى كانسان مطيع محب لله، مؤمن جدا بوعوده . رجع كما كان يثق بالله ويشكره ...

لقد تأثرت جدا من صلاة يونان التى صلاها وهو فى جوف الحوت، والتى تتسم بروح النبوة وبالايمان العجيب «والايقان بأمور لا ترى» ...

انها من أعظم الصلوات التى قرأتها فى حياتى ... ليته كان قد قدمها، أو قدم صلاة من نوعها قبل أن يفكر فى الهروب من الرب ... حقا أن الضيقات هى مدرسة للصلاة ...

لقد تأثرت كثيرا بقوله «دعوت من ضيقى الرب فاستجابنى» . وقلت فى نفسى: ما هذا يا يونان ؟ كيف استجابك وأنت ما تزال فى جوف الحوت ؟! أما كان الأجدر أن تقول «دعوتك يا رب فى ضيقى فاستجبنى» . فتطلب هذه الاستجابة لا أن تعلنها ؟!

ولكن يونان يرى بعين الايمان ما سوف يعطيه له الرب . يراه كأنه قائم أمامه، وليس كأنه سيأخذه فيما بعد، فيفرح قائلا «دعوت . . فأستجابنى» .

ويستمر يونان فى صلاته العجيبة، فيقول للرب «صرخت من جوف الهاوية، فسمعت صوتى . . . جازت فوقى جميع تياراتك ولججك. ولكننى أعود أنظر الى هيكل قدسك» . . . بهذا الايمان رأى يونان نفسه خارج الحوت، ينظر الى هيكل الرب . . .

وبهذا الايمان استطاع أن يحول صلاته من طلب الى شكر، وهو ما يزال بعد فى جوف الحوت العظيم . فختم صلاته بقوله «أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك، وأوفى بما نذرته . للرب الخلاص» «٢:٩» .

— كيف تأكدت أيها النبى القديس من أن الرب قد سمع صوتك، وقد استجابك، وقد سمح أن تخرج من بطن الحوت، وتعود مرة أخرى تنظر الى هيكله ؟؟ أين منك هذا الهيكل وهو بعيد فى أورشليم، بينما أنت فى جوف الحوت، فى مكان ما من البحر لا تستطيع تحديده ؟! ولكن النبى يجيب:

— أنا واثق تماما اننى سأخرج من بطن الحوت، وأكمل رسالتى، لأن كلمة الله لا تسقط ولا ترجع فارغة .

ما دام أمر أن أذهب الى نينوى، فسأذهب الى هناك، وأنفذ مشيئته المقدسة، وأقوم بعملى الكرازى . ثم أرجع الى هيكل الله، واسجد فيه، وأذبح للرب، وأقدم نذورى . . . هذا كله، أراد أمام عينى واضحا جدا لا يقبل الشك، لا يؤثر عليه مطلقا وضعى الحالى المؤقت فى الحوت وفى البحر . . .

عجيب جدا هذا الرجل فى ايمانه . انه حقا رجل الايمان العميق الذى اختاره الرب . . . لا ننكر ان ضبابا قد اكتنفه فأخطأ الى الله، ولكن عنصره ما يزال طيبا .

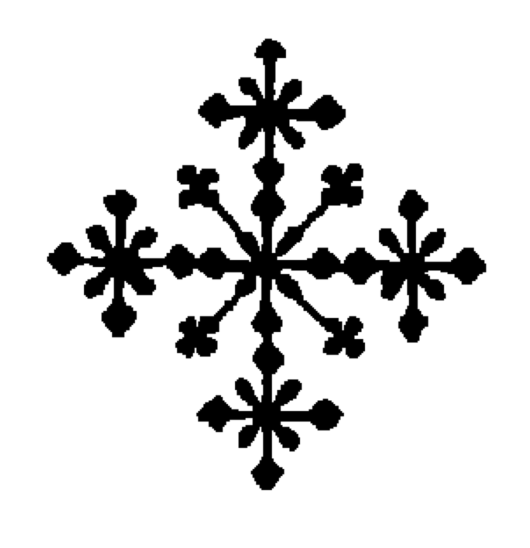
انه يرى المستقبل الملىء بالرجاء قائما كأنه الحاضر . ويشكر الرب على خلاص لم ينله بعد من جهة الزمن، ولكنه قد ناله فعلا من جهة الكشف الخاص بموهبة النبوة، الخاص بالرجل المفتوح العينين، الذى يرى رؤى الرب كأنها فى كتاب مفتوح، ويتمتع بمواعيده قبل أن تأتى . . .

وإذ وصل ايمان يونان الى هذا الحد العجيب، أمر الرب الحوت فقذفه الى البر...

كان سير هذا الحوت باحكام عظيم، وفق خطة الهية مدبرة تدعو الى الاطمئنان. ظهر فى الوقت المناسب، وفى المكان المناسب، لكى يحمل يونان فى داخله كما لو كان هذا النبى ينتقل من سفينة مكشوفة يمكن للأمواج أن تغطيها وتغرقها، الى سفينة مغلقة محصنة لا تقوى عليها المياه ولا الأمواج. وفى الوقت المناسب قذف يونان الى البر فى المكان الذى حدده الرب لنزوله. ثم جاز مقابله بعد أن أدى واجبه نحوه على أكمل وجه...

هنيئا لك يا يونان هذه الغواصة البديعة، التى عشت فى أحضانها فترة. أعادتك الى طقسك والى رسالتك...

نقلب هذه الصفحة من قصة يونان، كأنها لم تحدث، وكأن هذين الاصحاحين الأولين من السفر قد نسيهما الرب، فعاد يقول ليونان مرة أخرى «قم اذهب الى نينوى المدينة العظيمة، وناد عليها المناداة التى أنا مكلمك بها...



الفصل الرابع

نينوى

المدينة العظيمة

يونان يذهب إلى نينوى، ولكن...

أصدر الله ليونان نفس الأمر القديم «قم اذهب إلى نينوى ...» ... وفى هذه المرة لم يهرب من وجه الرب، بل «قام وذهب إلى نينوى حسب أمر الرب».

وتم الأمر فى هدوء: الله لم يعاتب، ويونان لم يعارض ... ولعل هذا الأمر يحتاج منا إلى وقفة تأمل...

الله لم يغضب من موقف يونان، بحيث يحرمه من الخدمة، أو يسقطه من درجة النبوة إلى درجة المؤمن العادى، أو يبحث عن غيره ليرسله...

والله أيضا لم يعاتبه، يكفيه ما حدث له. كان درسا عمليا، لا يحتاج إلى مزيد من الكلام الذى يجرح النفس فى تبكيت وتعنيف وتعيير بالخطأ السابق. كلا إن هذه ليست طريقة الله، بل الله يحافظ على احساسات أولاده. يتركهم ليشعروا بأخطائهم دون أن يعيرهم بها...

أما يونان فكان قد تلقى درسا، فأطاع ... ولكن أتراها كانت طاعة عن اقتناع ورضى أم هى مجرد خضوع؟

ها ذا أنت ذاهب يا يونان إلى نينوى ... فماذا عن العوائق السابقة التى كانت تمنعك فى المرة الأولى؟ ماذا عن كرامتك؟ وماذا عن كلمتك التى ستقولها ثم لا ينفذها الرب، إذ تتوب المدينة ويرجع الرب عن تهديده لها؟ هل فكرت فى كل ذلك، وهل مات الوحش الذى فى أحشائك، وحش الكرامة والاعتزاز بالكلمة؟

فى هذه المرة كان يونان سيطيع، وكفى. كان سيطيع من الخارج، أما من الداخل فما تزال كرامته لها أهمية عنده. سيضغط على نفسه من أجل الطاعة. وسينتظر ماذا سيفعل الرب. فى هذه المرة تقابل مع الله فى منتصف الطريق.

كانت محبة الكرامة ما تزال تتعبه، ولكنه أطاع خوفا من التأديب، وليس عن إيمان وتواضع.

كان ينفذ أمر الله، بالخوف، مع تذمر فى القلب من الداخل سيظهر فى حينه. كان

يسير بالعصا وليس بالنعمة . وقد قبل منه الله هذا الوضع كمجرد تدرج، ريثما يوصله الى الطاعة الصادرة عن اقتناع، المؤمنة بحكمة الله وحسن تدبيره ...

نينوى، المدينة العظيمة

عجيب هذا اللقب «المدينة العظيمة» الذى أطلقه الرب على نينوى!! قاله الرب مرتين ليونان «قم اذهب الى نينوى المدينة العظيمة» «(١:٢)»، «(٣:٢)» . وهذا التعبير «المدينة العظيمة» كرره الوحى للمرة الثالثة بقوله «وأما نينوى فكانت مدينة عظيمة للرب مسيرة ثلاثة أيام» «(٣:٣)» . وتكرر هذا اللقب للمرة الرابعة فى آخر السفر عندما قال الرب «أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة» «(١١:٤)» .

ما أعجب هذا، أن يلقبها الرب أربع مرات بالمدينة العظيمة، بينما كانت مدينة أممية، جاهلة لا يعرف أهلها يمينهم من شمالهم، تستحق أن ينادى عليها النبى بالهلاك، وهى خاطئة قد صعد شرها امام الرب . وليس فيها من جهة المقياس الروحى أى مظهر من مظاهر العظمة!!

أكان هذا تنازلا من الرب فى استخدام الأسلوب البشرى، فسماها عظيمة، على اعتبار أنها عاصمة لدولة، وتضم اكثر من ١٢٠ ألفا من السكان؟

أم أن الله رآها باعتبار ما سوف تصير اليه فى توبتها وفى عظمتها المقبلة، كأممية توبخ اليهود، كما قال عنها الرب «ان رجال نينوى سيقومون فى يوم الدين مع هذا الجيل ويدينونه، لأنهم تابوا بمناداة يونان . وهو ذا أعظم من يونان ههنا» «متى ١٢:٤١» .

ان تسمية الرب لنينوى بالمدينة العظيمة درس نافع للذين يسلكون بالحرف، ويدققون فى استخدام الألفاظ تدقيقا يعقدون به كل الأمور، ويخضعون به الروح لفقه الكلمات!!

أمر الله يونان النبى أن ينادى على نينوى بالهلاك، ولكنه كان فى نفس الوقت يدبر لأهلها الخلاص ... كان يحبهم ويعمل على انقاذهم دون أن يطلبوا منه هذا...

ان سفر يونان يعطينا فكرة عميقة عن كراهية الله للخطية، ولكنه فى نفس الوقت يشفق على الخطاة ويسعى لخلاصهم .

وانقاذ الله لنينوى فكرة عن اهتمام الله بالامم، اذ كان اليهود يظنون ان الله لهم وحدهم، وانهم وحدهم الذين يتبعونه ويعبدونه، وهم شعبه وغنم رعيته. فأراهم الله فى قصة نينوى أن له خرافا أخر ليست من تلك الحظيرة. وكما وبخ عبده يونان بايمان البحارة الامميين، وكذلك وبخ اليهود بايمان أهل نينوى وتوبتهم. تلك التوبة التى كانت عظيمة حقا فى عمقها وفاعليتها.

عظمة نينوى فى توبتها:

عندما وصف الله نينوى بأنها مدينة عظيمة، لم يكن ينظر الى جهلها وخطيئتها، انما كان ينظر فى فرح شديد إلى عمق توبتها.

*** كانت نينوى سريعة فى إستجابتها لكلمة الرب:**

إن أهل سدوم عندما أنذرهم لوط بغضب الرب، استهزأوا به «وكان كمازح فى وسط أصهاره» «تك ١٩:١٤». أما أهلّ نينوى فأخذوا يونان بجدية فائقة الحد، واستجابوا للكلمة بسرعة. على الرغم من مهلة الأربعين يوما التى كان يمكن أن تستغل للتراخى والتهاون ... لقد كانت كلمة الرب فيهم سريعة وحية وفعالة وأمضى من سيف ذى حدين.

وكان أهل نينوى فى هذه الإستجابة السريعة أعظم بكثير من اليهود الذين عاصروا السيد المسيح— الذى هو أعظم من يونان بما لا يقاس— ورأوا معجزاته العديدة، وشاهدوا روحانيته التى لا تحد، ومع ذلك لم يؤمنوا ولم يتوبوا، فوبخهم الرب بأهل نينوى «متى ١٢:١٤».

*** كانت كلمة الرب لأهل نينوى كلمة مثمرة، أتت بثمر كثير عجيب:**

أول ثمرة لها هى الإيمان «فآمن أهل نينوى بالله».

وثانى ثمرة لأهل نينوى كانت انسحاق القلب الصادق، المتذلل أمام الله. وهكذا «لبسوا المسوح من كبيرهم إلى صغيرهم». والمسوح ملابس خشنة من شعر الماعز...، دليل على التذلل وعلى الزهد ورفض مغريات العالم ... حتى ملك نينوى نفسه: خلع رداءه الملكى، وتغطى بالمسوح، وقام عن عرشه، وجلس على الرماد...

ونظر الله إلى هذه المدينة المتضعة، وتنسم منها رائحة الرضى. «فالذبيحة لله هى روح منسحق. القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله» «مز ٥٠» ... حقا ما أعجب هذا المنظر الفريد فى نوعه ... أن نرى مدينة بأسرها منسحقة فى التراب والرماد، متذللة فى المسوح، من الملك الى الطفل الصغير ... حتى البهائم، تغطت أيضا بالمسوح ..!

وكان من ثمار كلمة الله فيها أيضا: الصوم والصلاة ... نادت المدينة بصوم عام، للكل ... فلم يذق الناس شيئا ... وحتى البهائم والبقر والغنم، لم ترع ولم تشرب ماء. لم يرد الناس أن ينشغلوا بإطعام بهائمهم حتى يتفرغوا للعبادة وللتضرع إلى الله ... وهكذا مزجوا صومهم بالصلاة و «صرخوا الى الله بشدة»...

على أن أهم ثمرة لأهل نينوى كانت هى التوبة ... التوبة قادتهم إلى الإيمان، إذ كانت الخطية هى الحائل بينهم وبين الله. ومن ثمار التوبة فيهم كان التذلل والصوم ولبس المسوح والصراخ إلى الله. كانت توبة صادقة بكل معنى الكلمة، توبة جادة بكل مشاعر القلب، فيها «رجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذى فى أيديهم».

وبهذه التوبة استحقوا رحمة الله، فعفا عنهم جميعا وسامحهم، وقبلهم إليه وضمهم إلى خاصته. وفى هذا يقول الكتاب «فلما رأى الله أعمالهم، أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه» «٣: ١٠».

لم يقل الكتاب «لما رأى الرب صومهم وصلاتهم وتذللهم» بل قال «لما رأى أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة». كانت التوبة إذن هى سبب رحمة الرب لهم. وكان صومهم وصلاتهم وتذللهم مجرد ثمار للتوبة ...

* أود فى هذه المناسبة أن أقف قليلا عند عبارة هامة قيلت فى توبة نينوى وهى أنها «تابت بمناداة يونان» ...

فماذا كانت مناداة يونان؟

لم يسجل لنا الكتاب الخطاب العميق الذى قاد ١٢٠,٠٠٠ نسمة الى التوبة، بهذا الانسحاق العجيب. ليته كان قد زودنا بهذا الجانب الهائل الذى تتركز فيه كل عظمة يونان النبى...

كل ما سجله الكتاب لنا فى هذا المجال لا يزيد عن عبارة واحدة فقط، ذكر فيها أن يونان دخل المدينة ونادى وقال: «بعد أربعين يوما تنقلب نينوى» «٣: ٤».

هل حقا أن يونان لم يقل سوى هذه العبارة وحدها؟ وهل كانت كافية لخلاص المدينة وإحداث هذا التأثير الهائل؟

لقد قال لوط عن سدوم «ان الرب مهلك المدينة» «تك ١٩: ١٤»، ومع ذلك لم يتأثر أحد ولم يتب أحد. وسمع الناس عن الطوفان الذى سيهلك الأرض كلها، ورأوا الفلك يبنى أمامهم، ومع ذلك لم يتب أحد، وهلكوا جميعا ... وكم من مرة فشلت الإنذارات بالموت. آدم نفسه سمع انذاراً «موتا تموت»، فلم يمنعه هذا الإنذار عن الخطأ.

فما هو السر الذى يختفى وراء توبة نينوى وخلاصها؟

هل الأمر يرجع إلى قوة المناداة التى نادى بها يونان وعمق تأثيرها فى النفوس؟ أم أن

السبب يرجع الى قوة الاستعداد الداخلى فى القلوب، بحيث أن كل كلمة إلهية لابد أن تحدث أثرا، لأن القلب مستعد للسماع، والارادة مستعدة للتنفيذ، والأرض جيدة للزرع؟ ... أنا فى داخلى أميل الى هذا الرأى الثانى ...

أميل إلى الاعتقاد أن توبة نينوى كان مرجعها الأساسى هو الاستعداد القلبى عند أهل نينوى.

ولعل هذا الاستعداد هو الذى دعا الله الى ارسال نبيه اليهم. وكما يقول الرسول «الذى سبق فعرفهم، سبق فعينهم» «رو ٨:٢٩» ... ان استعداد القلب له مكانة كبيرة فى عمل التوبة ...

الشاب الغنى خاطبه الرب نفسه، بكل ما فى كلام الرب من قوة وتأثير. ومع ذلك مضى حزينا، لأن القلب من الداخل لم يكن مستعدا، كالأرض المحجرة لا تخرج نباتا مهما كانت البذار جيدة، ومهما كان الزارع خبيرا ... أما قلب الشاب انطونيوس، المستعد للكلمة، فلما سمع فى الكنيسة نفس العبارة التى قيلت للشاب الغنى، تركت هذه العبارة فيه أثرا عميقا، ونفذها بحب ... هكذا نينوى أيضا.

ويؤيد هذا الرأى عندى أن يونان عندما قال أن المدينة ستنقلب، قالها وهو مؤمن فى أعماقه أنها سوف لا تنقلب، وأن كلمته سوف لا تنفذ ...

نادى بهذه المناداة مضطرا، طاعة لأمر صدر اليه، وهو غير واثق مما يقول. ولو كان مؤمنا بما قاله، لكان كلامه أعمق تأثيرا ...

ومع ذلك تابت نينوى بمناداة يونان، لأن القلب كان مستعدا لأية كلمة تخرج من فم الله ... وهكذا كانت لهذه التوبة قوتها، فهى صادرة من الداخل لا من الخارج ...

ولهذا امتدح الرب أهل نينوى وتوبتهم، وقال إنهم سيقومون فى يوم الدين، ويدينون ذلك الجيل ...

ومما يزيد هذه التوبة قوة وجمالا، أنها كانت توبة عامة ... الكل تابوا . الكل رجعوا الى الله. الكل آمنوا به.

أكثر من ١٢٠ ألفا دخلوا الى حظيرة الرب دفعة واحدة . ان كان يصير فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب، فماذا نقول عن الفرح بأكثر من اثنتى عشرة ربوة كانوا من قبل لا يعرفون يمينهم من شمالهم؟!

وهكذا نجح الهدف الثانى من خطة الله . فخلص أهل نينوى، كما خلص أهل السفينة من قبل.

بقى يونان ...

الفصل الخامس

إنقاذ يونان
من قسوته وكبريائه

كان هناك فرح فى السماء بخلاص نينوى.

لقد فرح الله. وفرح الملائكة، وكانوا يهنئون بعضهم قائلين: لقد آمنت نينوى، وقد تابت، وقد انضم إلى ملكوت الله ١٢٠,٠٠٠ من الناس فى يوم واحد.

ووسط أفراح السماء وتهليل الملائكة، كان هناك إنسان واحد حزين بسبب هذا الخلاص العظيم، ذلك هو يونان النبى.

لقد حزن جدا لأن الله قد غفر لهؤلاء الناس ورحمهم ولم يهلكهم. وقد عبر الكتاب عن حزن يونان بعبارة مذهلة أو بعبارة مخجلة. قال فيها «فغم ذلك يونان غما شديدا فاغتاظ» «٤:١». يا للهول !! أيغتم النبى من أجل خلاص الناس، وغما شديدا، ويغتاظ!! كل ذلك لأن هذه الآلاف كلها قد نجت من الهلاك...

إذن ما هو عمل النبى، إن لم يكن هو خلاص الناس؟! وماهو فرح النبى إن لم يكن هو الفرح بخلاصهم؟!

يذكرنى يونان فى تصرفه هذا بالابن الكبير عندما حزن ورفض أن يدخل، لأن أخاه كان ميتا فعاش، وكان ضالا فوجد... وقد قبله أبوه فرحا. فاغتم هذا الابن الكبير غما شديدا وأغتاظ، كيونان ... وحاول بغضبه أن يعكر صفو تلك البهجة ... تماما كيونان.

فما هو السر المختفى وراء غيظ يونان النبى؟

لقد كان يونان ما يزال متمركزا حول ذاته، لا يفكر إلا فيها.

لم يكن يفكر فى نينوى، ولا فى توبتها، ولا فى هذا الخلاص العظيم الذى تم، ولا فى ملكوت الله وبنائه. وإنما كان يفكر فى شىء واحد فقط هو ذاته ... تماما كما فكر الابن الكبير فى ذاته: كيف أنه خدم أباه سنين طويلة، وكيف أنه لم يأخذ جديا، ولم يفرح مع أصدقائه ... «لو ١٥». وعلى أسلوب أقل فى الإهتمام بالذات، كان تعب مرثا بسبب جلسة التأمل الجميلة التى تمتعت بها مريم تحت قدمى المسيح ... كانت تفكر فى راحتها الخاصة وعدم حصولها على مساعدة من أختها...

أما يونان، فقد كان تفكيره فى ذاته من نوع أخطر. كان ما يزال يفكر فى كرامته وفى كلمته التى نزلت إلى الأرض...

إنه نفس التفكير السابق القديم، الذى دفعه قبلا إلى الهروب من وجه الرب .. وبسبب هذا الفكر، حرم نفسه من الاشتراك فى أفراح السماء، وفصل نفسه من الانضمام الى جماعة الملائكة المبتهجين بخلاص نينوى. وبرهن بغيظه هذا، على أن طريقة تفكيره ذاتية غير روحية، وبرهن على أن مشيئته ضد مشيئة الآب السماوى الذى «يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون» «١ تى ٢:٤».

وبهذا الغيظ برهن يونان على أنه لم يستطع أن يستفيد من تجربته السابقة. نسى الثمن الذى دفعه فى بطن الحوت وفى السفينة المهددة بالغرق...

لم يؤثر فيه ذلك الدرس المؤلم الذى تلقاه من الله. وإن كان قد أطاع الله ظاهريا بعد تلك التجربة، إلا أنه ظل فى الداخل كما هو لم يتغير، ولم يتخلص من طبيعته المحبة لذاتها وكرامتها المتمركزة حول هذه الذات. لم تكن خدمة الرب فى أعماقه، ولم تكن فى أعماقه محبة الناس ... كانت كل هذه الأمور تطفو على سطح تفكيره. أما العمق ففيه الذات والكرامة أكثر من أى شىء آخر!!

والعجيب أن يونان — وهو فى هذا السقوط الروحى — صلى إلى الرب ... بأى وجه كان يصلى وهو مختلف مع الله فى الوسيلة والأهداف؟! بأى وجه كان يصلى وهو بهذا القلب الخالى من المحبة المغتاظ من تصرفات الله؟! لست أدرى. ولكن يكشف الأمر ويزيده عجبا، أنه كان يصلى ليشكو الله ويبرر ذاته، ويتذمر على هذه المعاملة. طالبا لنفسه الموت، فالموت عنده أفضل بكثير من ضياع كرامته ...

إنه أخطأ، ولم يعترف بخطئه، بل على العكس تذمر!! وهكذا صلى وقال «آه يا رب ...» بل آه منك أنت يا يونان الذى لا تهتم سوى بنفسك وكرامتك! ماذا تريد أن تقول؟ يتابع يونان صلاته فيقول «آه يا رب، أليس هذا كلامى اذ كنت بعد فى أرضى؟! لذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش، لأنى علمت أنك اله رءوف ورحيم بطىء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر» «٤:٢».

وماذا يضيرك يا يونان فى أن يكون الله رحيما؟! ثق أنه لولا رحمته لهلكت أنت أيضا.. إن رحمته قد شملت الكل. كما شملت أهل نينوى التائبين المتذللين أمامه، كذلك قد شملتك أنت أيضا الذى لم تتب بعد، ولم تتذلل، وحتى صلاتك فيها تبرير ذات، وفيها شكوى، وفيها تذمر...

ويصرخ يونان فى تذمره «فالآن يا رب، خذ نفسى منى، لأن موتى خير من حياتى»!!

هل الى هذا الحد وصل غيظك من سقوط كلمتك يا يونان، لدرجة أنك ترى موتك خيرا من حياتك؟! قبل كل شىء، ينبغى أن تعلم أنها كلمة الله وليست كلمتك. انك مجرد مبلغ لرسالة، وصاحب الرسالة هو الله ذاته. فان كان الله فى كل علوه وسموه وسلطانه، قد قبل هذا الوضع، فلماذا لا تقبله أنت، وأنت مجرد تراب ورماد...

ثم من قال أن كلمة الله التى قمت بتبليغها قد سقطت أو تغيرت أو نزلت الى الأرض؟! ان الله أصدر حكم الهلاك والانقلاب على نينوى الخاطئة، وليس على نينوى التائبة.

كانت نينوى الخاطئة تستحق الموت حسب عدل الله. لأن «أجرة الخطية هى موت». ولكن نينوى الخاطئة ليس لها وجود الآن، حتى يعاقبها الله بالانقلاب... انها قد انقلبت فعلا عندما تحولت الى هذا الوضع الجديد. ونينوى الجديدة لا علاقة لها اطلاقا بنينوى الخاطئة، التى ماتت فعلا واختفت صورتها عن اعين الناس. نينوى الجديدة هى مخلوق جديد قد ولد من الروح القدس، مخلوق طاهر نقى، بطبيعة جديدة وروح جديدة، وصفات جديدة. وليس من العدل أن يحكم على هذا المخلوق الجديد بالموت. اذن فانقاذ الله لنينوى عمل من أعمال عدل الله، وليس فقط من أعمال رحمته...

لو كانت نينوى قد استمرت فى خطيئتها وشرها، وأبقاها الله على هذه الحالة ولم ينفذ فيها حكمه، لأمكن القول ان كلمة التهديد قد سقطت ولم تنفذ.

على أن يونان لم يفهم هذا المنطق، واهتم بحرفية الحكم لا بروحه! لذلك اغتاظ، ولم يكن له حق فى غيظه.

ومن الأمور التى تدعو الى الدهشة، أن يونان - بعد صلاته التى عاتب فيها الرب وتذمر مما حدث - كان ما يزال يراوده أمل فى أن يعود الله فيهلك المدينة، اكراما لنبيه وارضاء لهذا القلب المغتاظ!!. وهكذا يقول الكتاب أن يونان صنع له مظلة خارج المدينة وجلس تحتها «حتى يرى ماذا يحدث فى المدينة»!! «٤:٥».

رأى الله أن يونان مغتم ومغتاظ، فأراد أن يعمل معه عمل محبة. بينما كان يونان يفكر فى ذاته، كان الله يفكر فى خلاص الناس. الله لم يفكر فى كرامته، كيونان. لم يفكر كيف أن يونان عصاه وخالفه وتذمر على احكامه، وإنما فكر كيف يريح يونان ويخلصه من غمه. عجيبة هى محبة الله هذه...

كان لله عمل كبير مع يونان لا بد أن يعمله ...

يسعى لخلاصه هو أيضا، لئلا بعد ما كرز لآخرين، يكون هو نفسه مرفوضا امام الله «١ كو ٩:٢٧» ... كان هذا الذى كرز للناس بالتوبة يحتاج هو أيضا الى توبة، يحتاج ان يتخلص من قسوته ومن كبريائه ومن اعتزازه بكرامته. وكدأب الله دائما، بدأ هو بعمل المصالحة، فلما رأى يونان مغتما، أعد يقطينة ارتفعت فوق رأس يونان «لتكون ظلا على رأسه، لكى يخلصه من غمه» «٤:٦».

ما أكثر ما تتعب يا رب من أجلنا! من أجل راحتنا، ومن أجل اصلاحنا، ومن أجل مصالحتنا. كنا نظن انك استرحت منذ اليوم السابع، ولكنك ما تزال تعمل من أجلنا، استرحت من خلق العالم. أما من جهة رغايته فما تزال تعمل.

أنت تريد ان تريح يونان من غمه؟! ولكنه هو الذى يجلب لنفسه الغم بأسلوبه الخاطىء. نعم، الأمر كذلك، ولكنى أريد أن أريحه من الأمرين معا، من غمه ومن أسلوبه الخاطىء، انه ابنى على أى حال ...

سأخرج القساوة من قلبه بأعمال الرحمة التى أعملها معه، لكى يرى ويتعلم. وكما أشفقت على نينوى، أنا أشفق عليه أيضا، لان الشفقة هى طبيعتى. لقد أشفقت عليه عندما القى فى البحر، وأشفقت عليه وهو فى جوف الحوت، وأشفقت عليه فى كل أخطائه وأحاسيسه. والآن اشفق عليه فى غمه. لقد أعددت له اليقطينة لتظلل عليه، لأنى أعرف أنه سيفرح بها جدا. وأنا أبحث عن فرحه، مهما تذمر على أحكامى، ومهما اغتاظ من عملى ...

وكان كما شاء الله «وفرح يونان من أجل اليقطينة فرحا عظيما» «٤:٦». صدقونى اننى عندما قرأت عن الفرح العظيم الذى فرحه يونان باليقطينة انذهلت جدا ... انها ولا شك عبارة مخجلة ...

هل تفرح يا يونان فرحا عظيما من أجل اليقطينة التى ظللت عليك، ولا تفرح ولو قليلا، بل تغتاظ من أجل رحمة الله التى ظللت على ١٢٠ ألف نسمة؟! ألم يكن الاجدر أن تفرح هذا الفرح العظيم من أجل خلاص نينوى؟!

ولكنك فرحت باليقطينة، لأنك تفكر فى راحتك الشخصية، فى ذاتك، وليس فى ملكوت الله على الأرض ..! والله رأى فى أن يفرحك بهذا الاسلوب الذى تفرح به. لكى يريك أنه مهتم بك، وأنه لا يعاملك حسب أعمالك، بل حسب وفر حنانه ... ينزل الله الى مستواك المادى، لكى يرفعك الى المستوى الروحى اللائق بنبى ... انه يعاملك بهذه الشفقة وأنت خاطىء، لكى يغرس فى قلبك الشفقة نحو الخطاة. وهكذا يعالج قسوتك على أهل نينوى وعدم رحمتك نحوهم.

واليقطينة التى أعدها الله ليونان، كانت تحمل هدفين:

الأول هو إظهار الشفقة نحو يونان اذ تظلل عليه، والهدف الثانى أن يتعلم من قصتها درسا روحيا نافعا لحياته. بنمو اليقطينة يعمل الله عمل رحمة نحو يونان، وبهلاك اليقطينة فى يبسها، يعمل الله عمل تعليم وارشاد ليونان، لكى ما يستفيد ماديا ونفسيا وروحيا.

داخل نينوى كان يونان يعمل مع الله فى نشر ملكوته بالكرازة، وخارج نينوى كان الله يعمل لأجل يونان لتخليص نفسه، ولتخليصه من غمه...

واستمر الله يعمل، فى هدوء وصمت، دون ان يحس يونان بعمله. عندما فرح يونان باليقطينة فرح بظلها، ولكنه لم يفرح بدرسها، اذ لم يكن قد تلقاه بعد. فرح باليقطينه، ولم يفرح بالله الذى كان يعمل وراء اليقطينة من أجله.

واذ بدأت خطة الله تأتى بثمرها، ضرب اليقطينة فيبست، أعد لها دودة فضربتها. وانتهى الدور الذى قامت به اليقطينة وبقى ان يتخذها الله مادة للتعليم!

ضاعت اليقطينة، وضاع الظل، وضربت الشمس على رأس يونان فذبل، واشتهى لنفسه الموت. كل ذلك كان بتدبير من الله، لكى يعطى يونان درسا نافعا لخلاص نفسه.

حقا ان الله يدبر كل شىء للخير. الظل للخير، وضربة الشمس للخير أيضا.
يمكن أن يذبل الجسد، ويكون هذا خيرا، لكى تنتعش الروح. ويمكن أن يتضايق يونان وتتعب نفسه ويشتهى الموت، وتكون ضيقته وتعبه جزءا من الخطة الالهية صالحا لتخليص روحه وتنقية قلبه...

ان الله يريد لنا الخلاص، وهو مستعد أن يستخدم كافة السبل النافعة لخلاصنا، حتى لو كانت تحمل أحيانا تعبا للجسد، أو تعبا للنفس ...

وفى خلال كل هذه التدابير الروحية كان يونان غارقا فى تفكيره المادى. يفرح من أجل اليقطينة، ويحزن من أجل ضياعها، دون أن يفكر فى خلاص نفسه، ودون أن يهتم بالمصالحة مع الله...

واذ ذبل يونان من ضربة الشمس، «طلب لنفسه الموت وقال موتى خير من حياتى» «٤:٨». وكانت هذه هى المرة الثانية التى يطلب فيها الموت لنفسه: الأولى عندما تضايق من أجل كرامته وسقوط كلمته، والثانية عندما تضايق بسبب ضربة الشمس وسقوط اليقطينة. الأولى لسبب نفسى، والثانية لسبب جسدى، دون أن يكون للروح شأن بالموضوع...

كثيرون اشتهوا الموت لاسباب روحية مقدسة، أما يونان فطلب الموت لأسباب تافهة تحمل معنى التذمر وعدم الاحتمال.

بولس الرسول لم يخطيء عندما قال «لى اشتهاء ان انطلق وأكون مع المسيح، فذاك أفضل جدا» «فى ١:٢٣». وسمعان الشيخ لم يخطيء عندما قال «الآن يارب تطلق عبدك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك» «لو ٢:٢٩».

أما يونان فقد أخطأ عندما قال لله «الآن خذ نفسى لأن موتى خير من حياتى». **قالها عن تذمر، فى وقت لم يكن فيه مستعدا للموت. ولو سمع الله صلاته فى ذلك الوقت واخذ نفسه منه، لضاع يونان.** أليس رحمة من الله بنا، انه لا يستمع أحيانا لصلواتنا فى جهالة طلباتنا التى تضرنا. وصدق الرسول حينما قال «تطلبون ولستم تأخذون، لأنكم تطلبون رديا» «يع ٤:٣».

واذ وصل يونان الى طلب الموت، بدأ الله يتفاهم معه، فقال له «هل اغتظت بالصواب؟» هل اغتظت بسبب حكمة الله ورحمته؟ واجاب يونان: نعم اغتظت بالصواب حتى الموت: اتضيع كلمتى وكرامتى، ثم تحرمنى من ظل يقطينتى ولا تنتظر منى بعد ذلك ان أغتاظ. نعم أغتظت «بهذا الذى تسميه صوابا» حتى الموت...

ومع ان هذا الاسلوب من يونان لم يكن لطيفا من الناحية الروحية، الا انه على أية الحالات يدل على صراحته مع الله وكشفه لدواخله كما هى...

وبدأ الله يتفاهم معه ويقنعه. قال له الرب «أنت أشفقت على اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيتها، التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس...»؟!

أما من جهة كلمتك التى تظن أنها سقطت، أو بالأحرى كلمتى، فاعلم انها لم تسقط، وأنا لم أتغير. فالله ليس عنده تغيير ولا ظل دوران «يع ١:١٧».

اننى لم اقصد اهلاك اهل نينوى، وانما اهلاك الشر الذى فيهم. لقد حكمت عليهم بالهلاك عندما كانوا ممتزجين بالشر، بحيث صاروا هم والشر شيئا واحدا. أما وقد انفصلوا عن الشر، فلا معنى لاهلاكهم، لأنه ليس فيهم الآن شر يستحق الهلاك. لقد انضموا الى صفى، وصاروا ضد الشر معى.



الفصل السادس

الله فى سِفر يُونان

فى هذا السفر الصغير المملوء بالحيوية والتعاليم، تأملنا فى حياة يونان النبى نفسه، واهتمامه بكرامته، واعتزازه بكلمته، وما وقع فيه من أخطاء مذهلة بسبب هذه الكرامة الزائفة، وكيف كان البحارة الأُميون أفضل منه، بل كانت أفضل منه أيضا الكائنات غير العاقلة التى أطاعت الله. كما تحدثنا فى هذا السفر أيضا عن أهل نينوى وانسحاق أنفسهم وصدق توبتهم.

ولكن أعمق التأملات فى هذا السفر هو الخاص بالله ذاته. تأمل جميل حقا هو «الله فى سفر يونان». ولعل أول ما يسترعى انتباهنا فى هذه القصة الجميلة — غير ما سبق ذكره فيما قبل هو بحث الله عن الإنسان.

الله يبحث عن الإنسان

نجد فى هذا السفر أن الله هو الذى يبحث عن الإنسان، وليس الإنسان هو الذى يبحث عن الله. تعلمنا حياة التوبة أن الانسان ينبغى أن يرجع إلى الله، كما رجع الابن الضال إلى أبيه، إذ خاطب نفسه قائلا «أقوم وأرجع إلى أبى» «لو ١٥».

أما فى سفر يونان، فنجد أن الله هو الذى يفتش عن الإنسان لكى يتوبه. نراه يبحث عن الكل، يجول يطلب النفوس التى له...

هو بذاته يبحث عن النفوس الموجودة فى السفينة ليخلصها. وهو بذاته يبحث عن النفوس الضالة فى نينوى لكى يتوبها فتخلص. وهو أيضا يستخدم كل الوسائل لكى يخلص يونان النبى. إن كان الإنسان لا يأتى إليه، يذهب هو إلى الإنسان، لكى يصلحه ويصالحه. كما قال القديس يعقوب السروجى فى مناسبة ميلاد المسيح «كانت هناك خصومة بين الله والإنسان. فلما لم يذهب الإنسان لكى يصطلح مع الله، نزل الله لكى يصالح الإنسان».

والله لا يجد أن هذا ضد كرامته، أن يبحث عن الإنسان ويسعى إلى محبته! خالق السماء والأرض يجد لذته فى البحث عن التراب والرماد! ليعطينا فكرة عن حنان الأبوة وعن سماحة القلب الواسع.

وفى البحث عن الإنسان لجأ الله إلى طرق متنوعة عديدة ... منها التخويف، ومنها العتاب، ومنها الاقناع، ومنها الملاطفة، ومنها العقوبة ... المهم عنده أن

يصل الى قلب الانسان ويجد له موضعا فيه ... الله جوعان حبا الى هذا الانسان، يريد أن يستريح فى قلبه.

نلاحظ أيضا ان الله لم يترك الانسان الى حريته تركا كاملا ... أقصد: لم يتركه الى حريته، الترك الذى يحمل معنى الاهمال وعدم المبالاة بمصيره، كأنه يقول له «ان جئت، كان بها. وان لم تأت فأنت وشأنك»!! كلا، بل ان لم تأت الى، انا أسعى اليك، وأجرى وراءك، وأبحث عنك، وأمسك بك، وأظل هكذا حتى أرجعك. ان رأس الله تريد ان تستريح فى قلب هذا الانسان المتعب، لكى تريحه من تعبه، وتحول تعبه الى راحة...

ونلاحظ فى سفر يونان أن بحث الله عن الانسان كان بحثا جديا، وليس بحثا رسميا شكليا. كان بحثا يحمل معنى الاصرار على ارجاع المحبة بأية الطرق، ولو أدى الامر ان يضرب هذا الانسان، لكى يستفيق، فيرجع الى محبته...

هذا هو التأمل الأول. أما الثانى فهو:



ان الله الحنون لا مانع عنده من استخدام طرق العقوبة والتخويف، ان كانت نافعة لخلاص الانسان. وفى سفر يونان نجد ثلاثة أمثلة وهى:

١- مثال تهديد من بعيد:

مثلما حدث مع أهل نينوى ... مجرد انذار. سأحرق المدينة بعد أربعين يوما.. «بعد أربعين يوما تنقلب نينوى» ... تهديد، مع اعطاء فرصة، وفرصة طويلة ... ولم تنقلب المدينة، لأنها خافت من الغضب الآتى ومن العقوبة المنتظرة فتابت.

٢- مثال آخر أشد، هو لطمة من الخارج:

مثلما حدث مع بحارة السفينة وركابها، ومنهم يونان. هنا لم يكن الأمر مجرد تهديد، وانما بدأ التنفيذ العملى الى حد ما. اوامر أصدرها الله الى الزوابع ان تلطم السفينة حتى تكاد تغرق. ولكن نلاحظ ان الله وضع للأمواج حدودا فى الضرب: اضربوا السفينة من الخارج، ولكن لا تدخلى أيتها المياه الى داخلها. اضربى السفينة، زعزعى السفينة، ولكن لا تمسى احدا من ركابها بسوء...

نلاحظ هنا أن الضربة سببت بعض الخسائر، اذ اضطر الناس أن «يطرحوا الأمتعة التى فى السفينة الى البحر، ليخففوا عنها»...

هذان مثالان من عقوبة الله. أما الثالث فأشد منهما:

٣- فى النوع الثالث، دخلت العقوبة فى جدية خطيرة...

صدر الأمر الى الحوت أن يبتلع يونان، نظر يونان الى ذاته، فوجد نفسه فى بطن الحوت...

هذه هى الطرق الثلاث فى العقوبة، والله يريدكم أن تصلوا اليه بأية طريقة تروقكم أو تناسبكم...

لو أدى الأمر، لا مانع لدى الله من أن يهيج الزوابع ضد سفينة حياتكم، ويضطركم ان تلقوا بعض المهمات العالمية خارج السفينة. من الجائز أن تكون سفينة حياتكم محملة بالبر الذاتى، أو محملة بالعناد، أو بمحبة العالم. وعندما تهزها الموجة تتزعزع. خففوا سفينتكم أيها الإخوة. ربما سمح الله أن يضرب السفينة لكى نلقى منها حقيبة البر الذاتى، وزكيبة الشهوات، ومقطف العناد ... ارموا كل ما يعطلكم، ولا تبقوا داخلكم سوى محبة الله...

ان لم تصلح معك هذه الطريقة، ربما يرسل لك الرب حوتا ليبتلعك! وأنت تصرخ الى الله وتقول:

أنا يا رب لا أحتمل الحوت ولا الزوابع. أقل شىء يوصلنى اليك. لتكن يدك على، يدك لا عصاك...

الناس يختلفون فى مدى حساسيتهم وفى مدى استجابتهم لصوت الله. منهم من يشير اليه الله من بعيد، مجرد اشارة فيحن ويستجيب. منهم من اذا أصابته أقل إصابة أو أقل لطمة، يتذكر خطاياه ويتوب، ويرجع الى الله قبل أن يتطور الأمر الى أسوأ. ومن الناس نوع لا يأتى الا بالعنف وبالضربة الشديدة...

فلا تلجئوا الله الى استخدام الطرق العنيفة لاجتذابكم. ان استخدم الله معكم العنف، فأعلموا أن ذلك هو لمقابلة العنف الذى فيكم، العنف الذى فى قساوة قلوبكم وعدم استجابتها لحنو الله...

ان أهل نينوى الذين خافوا من بعيد لم يستخدم الله معهم العنف. وأهل السفينة الذين استطاعت مجرد الأمواج أن تغير قلبهم، لم يسمح الله مطلقا باغراق سفينتهم. أما يونان الشديد العنف، فلم تكن تصلح له هذه اللمسات البسيطة. لقد كانت الأمواج تضرب السفينة، والسفينة تكاد تنكسر، والأمتعة يلقيها البحارة فى البحر. وفى أثناء كل ذلك كان يونان قد «اضطجع ونام نوما ثقيلا»!! انه نوع لا تنفعه العقوبة الخفيفة ... فى النوم الخفيف يمكن أن تربت على الكتف أو تلمس الوجه فيصحو النائم. أما من نام نوما ثقيلا، فيحتاج الى هزة عنيفة لتوقظه ... أخاف أن يكون قلبكم من هذا النوع الثقيل ... الله يريد أن يوصلكم اليه، فيا ليتكم تستجيبون الى طرقه الهينة اللينة اللطيفة ولا تلجئوه الى العنف...

لعل بعضكم يعجب كيف تتفق الطرق العنيفة مع لطف الله ووداعته؟ والجواب بسيط. ان الله يهمه مصيرك الابدى، أكثر بكثير من حياتك على الأرض. وفى سبيل خلاصك، هو مستعد أن يعمل أى عمل الهى مهما كان عنيفا، لكى يرجعك اليه.

ونلاحظ أن عنف الله ممزوج بالرحمة والحنو، لأنه مجرد وسيلة. فعندما أرسل الزوابع والأمواج الى السفينة، لم يسمح أن تمس أحدا داخلها. ولما أرسل حوتا ليبتلع يونان، لم يسمح للحوت أن يضره. هو يضرب أحيانا، ولكن على قدر احتمال الانسان، وعلى قدر ما توصل اليه الضربة...

يبقى بعد كل هذا سؤال هام وهو:

ما هى الطريقة التى تصلح لك، فيستخدمها الله لخلاصك؟

كن صريحا مع نفسك ومع الله. ان كنت لا تأتى الا بضربة شديدة تصيبك، قل له «اضرب يا رب كما تشاء، ولا تشفق... المهم ان أصل اليك». وان كانت التجارب والضيقات هى التى تقربك الى الله قل له هكذا «اعترف لك يا رب اننى ان عشت فى راحة، أنساك واتركك. وان أحاطت بى الضيقات، اعيد صلتى بك... يكفى ان تسمح لى برئيس متعب، أو بمشكلة فى البيت، أو بمرض، لكى تجدنى تحت قدميك. وتجد قلبى معك».

كن صريحا يا أخى مع الله، وتقبل كل تدابيره بفرح وشكر. ولكن احترس من أن تقودك طرق الله الى العكس...

كانسان يرسل الله له ضيقة نافعة لخلاص نفسه، فيتخذها لهلاكه. يرسل الله له حوتا يبتلعه، فبدلا من أن يصلى فى جوف الحوت كما فعل يونان، يتذمر ويضجر ويجدف على الله... مثل كثيرين نراهم دائمى الشكوى من الله: لماذا فعل الله بى هكذا؟ لماذا يضطهدنى ولماذا ينسانى؟!.

مساكين هؤلاء ان عصا الله التى يريد بها هدايتهم، يتخذونها للتذمر، ومعالجة الله لهم يقابلونها بالشكوى... ان ايمانهم ضعيف فى عمل الله معهم وفى الثقة بحكمته...

على أية الحالات ان الله لا يتضايق من التفاهم معه.

نحن الآن نتذكر صوم نينوى، ونعتبره صوم التوبة. فليتنا نتوب بأية طريقة، سواء طريقة أهل نينوى، أو طريقة ركاب السفينة أو طريقة يونان. ليتنا نتضرع الى الله ونقول له «خسارة يا رب تعبك معنا هذه السنين كلها، ان ضاع بلا فائدة». اكمل عملك معنا، «ولا تضيع الطبخة من أجل مليم فلفل». لقد تعبت فى خلقنا وفى رعايتنا وفى فدائنا. فلا يضيع خلاصنا من أجل هذه التوبة، اكمل عملك، ليس فقط بمليم فلفل،

بل حتى بمليم شطة ... نريد أن يكون هناك فرح فى السماء بتوبتنا، ولا نعطل أفراح السماء.!

أخذنا الآن درسين فى معاملات الله: الأول أنه يبحث بنفسه عن الانسان، والثانى انه مستعد من أجل خلاص الانسان أن يستخدم العنف والعقوبة ... فما هو الدرس الثالث؟ اننا نتعلم من هذا السفر ايضا، ان الله مستعد ان يرجع عن تهديده.



ان الله مستعد أن يرجع عن تهديده، اذا رجع الانسان عن طرقه الخاطئة...

الله ليس من النوع الذى يصر على كل حرف خرج من فمه «أنا قلت كلمة يعنى لازم تنفذ الكلمة مهما حدث»!! كلا، الله ليس من هذا النوع. ما أسهل ان يقول الكتاب ان الرب رجع عن حمو غضبه «وندم على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه» «خر ١٢:٣٢، ١٤». وفى قصة أهل نينوى يكرر الكتاب نفس العبارة «ندم الله على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه» «يون ٣:١٠».

الذى ترفع عنه يونان ووجده ضد هيبته وكرامته، تواضع الله ففعله. يونان تضايق جدا، «واغتاظ حتى الموت» لأنه قال كلمة ولم تنفذ. والله صاحب هذه الكلمة لم يتضايق مثل يونان، بل فرح بتوبة أهل نينوى وخلاصهم...

الله هو أسهل كائن يمكن أن تتفاوض معه. يكفى دمعة واحدة منك تذيب كل تهديداته وعقوباته، ان كانت دموعك صادقة ومن اعماقك ... يكفى أن تندم وتتوب، وتعترف وتطلب الحل، فينسى لك كل خطاياك التى تبت عنها «لا يعود يذكرها».

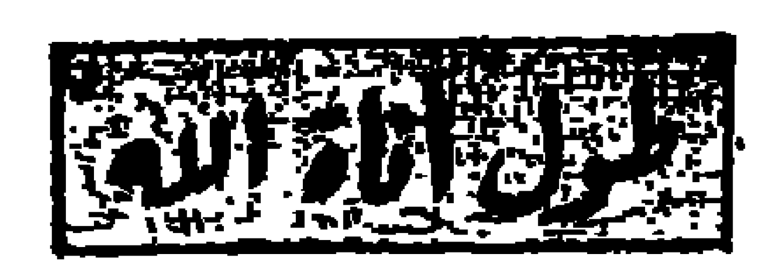
ان التعامل مع الله سهل. كثير من الناس يسألون ويقولون «وهل هذه الخطية يمكن أن يغفرها لى الله، وينسى لى أنى فعلت كذا وكذا؟!» ... نعم يا أخى، ان التوبة مع الاعتراف والتناول تمحو جميع الخطايا، وتزيل كل نجاساتك «فتبيض كالثلج أو أكثر» «مز ٥١:٧»، «أش ١:١٨». ان الله الحنون «نيره هين، وحمله خفيف» «متى ١١:٣٠».

انه مستعد أن يرجع عن تهديده، ويترك كل انذاراته، بعكس الانسان الصلب العنيف المعتز بكلمته.

ان هيرودس الملك من أجل أنه قال كلمة، لم يستطع كملك ان يرجع فى كلمته، مع أنه قالها فى ساعة نشوة ولهو، حتى لو اضطرته الكلمة أن يقطع رأس يوحنا العظيم! أما الله، ملك الملوك، فمع انه قال كلمة عادلة الا انه لم يجد غضاضة فى أن يتنازل عنها، مادامت قد أوصلت إلى غرضها، لأن توبة الناس كانت بعدل تستحق ذلك.

انه درس اراد الله أن يلقنه ليونان، وكان يونان رافضا أن يستفيد منه. كان يونان يريد كلمة واحدة. ان قال ان تهلك المدينة فلابد أن تهلك، ولا تفاهم فى ذلك.

أما الدرس الرابع الذى نتعلمه من سفر ونان، فهو طول أناة الله وصبره.



لا شك أن الله طويل البال فى كسب الخطاة. ولا ييأس من أحد مهما كان متعمقا فى شره.

لم ييأس من نينوى المدينة الفاسدة الشريرة الوثنية التى لا تعرف يمينها من شمالها. ولم ييأس من يونان العنيف الصلب، المقاوم لارادة الله، المتمسك بكلمته، الذى لا يهمه خلاص أكثر من ١٢٠ ألف نسمة فى سبيل أن كلمته لا تنزل الى الارض!! ولم ييأس من أهل السفينة الذين يعبدون آلهة كثيرة...

ان الله باله طويل فى كسب الخطاة، ويرى أن الذى لا يتوب اليوم فقد يتوب غدا، والذى لا يتوب الآن فقد يتوب فيما بعد...

يونان يرفض أن يذهب الى نينوى، ويأخذ سفينة ويهرب. أما الله فيطيل أناته على يونان. سأصبر عليك يا يونان حتى تذهب آخيرا. ان لم تذهب الى نينوى فى هذه المرة، فلا بد أنك ستمضى اليها فى المرة المقبلة. مهما هربت منى، فسأظل أتتبعك حتى ترجع. ان كنت تدخل الى سفينة فسأدخل معك. أحيط بك من كل ناحية. تنزل الى البحر، معك أيضا. تدخل الى بطن الحوت، معك أيضا. أضع عينى عليك فى كل موضع، حتى ترجع. لا تظن أن العالم ينجح فى أن يجعلك تهرب منى، أو أن عنادك يمنعنى عنك، أو يمكنك من أن تبعد عنى.

حقا ما أجمل قول داود النبى: «أين أهرب يا رب من روحك؟ ومن وجهك أين أختفى؟!» «مز ١٣٩:٧».

ان الانسان صعب جدا فى معاملاته. أحيانا نغضب بسرعة من أصدقائنا، ومن أقل تصرف نقطع علاقاتنا بهم، وننسى محبتهم القديمة ومحبتنا لهم. صدورنا تضيق بسرعة ولا تحتمل. وعمل واحد للناس يجعلنا نحكم على حياتهم كلها حكما قاسيا ولا نرجع فيه.

أما الله فليس كذلك، انه لا يتخلى عن أحبائه بسرعة مهما أخطأوا...

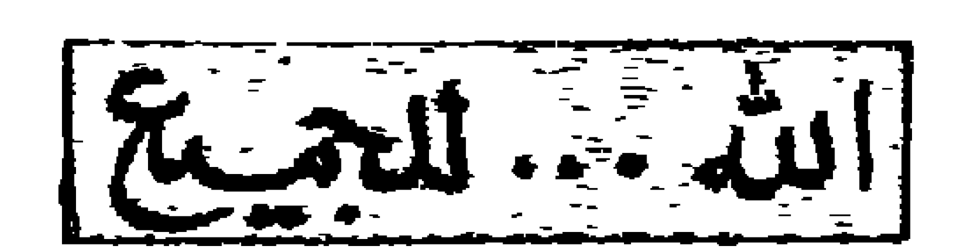
لو أن واحدا فينا سأله الله أن يبدى رأيه فى موضوع يونان، لقال له: ولماذا تتمسك يا رب بيونان وهو على هذه الحال؟! لقد جربته فوجدته مخالفا متمسكا بكلمته. استخدم شخصا آخر. هل لا يوجد عندك غيره؟! عندك كثير بلا شك. انك قادر أن

تقيم من الحجارة أولادا لابراهيم «متى ٣: ٩» اترك يونان هذا الذى خالفك، والذى لم يستطع أن يطاوعك كما طاوعتك الدودة حينما أمرتها أن تأكل اليقطينة . لقد كانت الدودة أفضل منه!! أما هو فوقف ضد أمرك ... أتراه يريد أن ينفذ مشيئته عليك؟! ما معنى أنه يصر على أن تميت أكثر من ١٢٠ ألف نسمة قد تابوا ورجعوا اليك. لا تلتفت الى مثل هذا النوع. هناك كثيرون أكثر طاعة منه وأكثر خضوعا لك واخلاصا!!...

أما الله فانه يصبر على يونان المخالف العنيد، ويطيل اناته عليه حتى يصلحه، ويقنعه ويفهمه الطريق الصحيح، ويقيمه نبيا عظيما، ويجعله رمزا له فى الموت والقيامة، ويجعل سفرا مقدسا فى الكتاب يحمل اسمه، ويقيم له فى كنيسته تذكارا أبديا، وتراتيل ومدائح فى تمجيده ... هذا هو عمل الله مع أولاده، تبارك اسمه ...

وتبدو طول اناة الله أيضا، فى مهلة الاربعين يوما التى قدمها لأهل نينوى، فلم يأخذهم بأخطائهم فجأة، وانما اعطاهم زمانا للتوبة ...

عظة أخرى نأخذها من سفر يونان وهى ان الله للجميع.



الله ... للجميع

من صفات الله الجميلة انه يأخذ جميع عينات الناس، ويجعل لهم نصيبا فى ملكوته. وفى الكتاب المقدس نجد الوانا من النفسيات والعقليات ... ملكوت الله مثل شبكة فى البحر جمعت من كل نوع ... دعا يونان العنيد المتمسك بكلمته، كما دعا انسانا كثير الشك مثل توما، وانسانا سريع الاندفاع مثل بطرس. دعا شخصا حليما وديعا مثل موسى، وشخصا ناريا مثل ايليا. دعا ابراهيم الذى كان يخاف، ويقول عن سارة انها أخته، وجعله أبا لجمهور المؤمنين . انها عينات من الناس يأخذها الله ويعمل فيها بنعمته وروحه القدوس.

انها عينات من الناس، كأنها كتلة من الخشب الخام، يتناولها «ابن النجار» ويعمل فيها. عرق خشب، جزء منه يأخذه بالفارة، وجزء بالمنشار، وجزء بالشاكوش . وهكذا يظل ينشره ويمسحه، ويقطعه ويفصله، ويسمره، حتى يتحول الى كرسى لطيف يستريح عليه.

أو كأننا قطعة من الطين يتناولها الخزاف العظيم، ويشكلها حتى تصبح اناءا للكرامة. انه الله الذى كان روحه يرف على وجه المياه، وظل يعمل حتى حول الأرض الخربة الخالية المغمورة بالمياه والظلام، الى هذه الطبيعة الجميلة التى يتغنى بجمالها الشعراء والأدباء...

هكذا فعل الله مع يونان، ومع أهل نينوى، ومع ركاب السفينة ... عمل فيهم جميعا حتى حولهم الى هياكل مقدسة لروحه، ومنحهم النقاوة والقداسة، حتى يكون

فضل القوة لله وليس لنا «٢ كو ٧:٤»، وحتى ان افتخر احد فليفتخر بالرب «٢ كو ١٧:١٠»، وحتى لا ييأس أحد من خلاصه أو خلاص غيره ... انه الله الذى «يخرج من الجافى حلاوة» «قض ١٤:١٤».

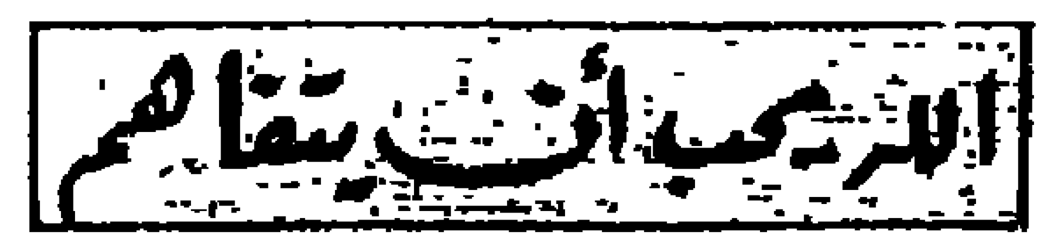
فلا يقل أحد: ان طبيعتى رديئة، اسوأ من الارض الخربة الخالية المغمورة بالمياه والظلام. أنا جربت نفسى فوجدت اننى لا أتغير، وقد تعب فى اصلاحى آباء الاعتراف وكل المرشدين والمعلمين. الظاهر اننى سأبقى فى ظلمة ما قبل اليوم الأول للخليقة!! لأن صوت الله ما يزال يرن فى اذنى طوال ٢٠ سنة قائلا «ليكن نور» وأنا ما أزال فى ظلمتى بعد...!

كلا يا أخى لا تيأس، ان الذى عمل فى يونان قادر أن يعمل فيك أيضا. والذى عمل مع أهل نينوى وأهل السفينة، قادر أن يعمل معك أيضا. والذى حول الطين الى آنية للكرامة، قادر أن يحولك أنت كذلك...

اصبر، وانتظر الرب. ولكن ليس معنى هذا أن تتهاون وتتراخى وتستمر فى الطين حتى يأتى الخزاف.

ان التوبة تحتاج الى أمرين: عمل من الله، واستجابة من الانسان. كما استجاب لدعوة الله أهل السفينة فآمنوا ونذروا نذورا، وكما استجاب أهل نينوى، فتابوا ورجعوا عن طرقهم الرديئة، وكما استجاب يونان أخيرا...

درس آخر نتعلمه من سفر يونان، وهو أن الله على الرغم من عظمته التى لا تحد، يحب أن يتفاهم مع الانسان...



أن الاصحاح الرابع كله من سفر يونان، يتركز فى هذه الحقيقة وحدها تقريبا، وهى أن الله يحب أن يتفاهم مع أولاده: يناقشهم ويشرح لهم، ويصل معهم الى نتيجة والى اقناع، ويرضى قلوبهم فى النقاش...

حقا ان الله أعطانا فى هذا السفر أمثلة من العقوبة ومن الانذار، ولكن فيه أيضا أمثلة من التفاهم...

ومحبة الله للتفاهم واضحة فى الكتاب المقدس كله. «هلم نتحاجج يقول الرب» «أش ١٨:١». قصة حرق سدوم، تعطينا فكرة واضحة عن كيف تفاهم الله مع ابراهيم «تك ١٩». كذلك تفاهم الرب مع موسى النبى، ونفذ له رأيه «خر ٣٢».

وأعطانا صورة رائعة للتفاهم فالله ليس هدفه فى كل مرة يتفاهم فيها معنا أن يقنعنا بشىء يفرضه علينا، وإنما قد ينزل الى رأينا ويأخذ بفكرتنا، كما تناقش معه موسى فكانت النتيجة أن الرب ندم على الشر الذى تكلم أن يصنعه فلم يصنعه...

والله قد تفاهم مع يونان، وهو الذى بدأ بالتفاهم ... قال له: تعال يا يونان لكى نتفاهم، ولا تغضب. «هل اغتظت بالصواب؟». وأجاب يونان «أغتظت بالصواب حتى الموت» ... حقا أن صوابك قد أطار صوابى!! ولم يتضايق الله من رد يونان، بل ظل يقنعه عمليا وبالكلام، بأنه كان يجب الاشفاق على نينوى...

ان الله لا يستغل جبروته فى تنفيذ مشيئته. انه لا يستخدم عبارة «أنا قلت كده، يعنى كده». هذا الأسلوب يوجد عند الانسان. **والإنسان قد يكون أحيانا غير واثق من كرامته، ويريد أن يثبت كرامته بالتشبث برأيه.** انها عقدة نقص فى الإنسان، ولا توجد عند الله المتناهى فى كماله، الذى يرى أنه لا ينقص شيئا حينما يتفاهم وحينما يبدو أنه قد رجع عن رأيه.

والعجيب أن الله– فى تفاهمه مع يونان– لم ينظر الى التفاوت الكبير بينهما. لم يقل «من هو يونان هذا حتى أتفاهم معه!؟ أنا خالق الكل ورب الكل. أيليق بى أن أتفاهم مع حفنة تراب ورماد؟!» ... كلا. لم يقل الله هكذا...

نلاحظ حاليا أن الدول تتفاهم مع بعضها البعض على مستويات. رؤساء وملوك مع رؤساء وملوك، وزراء مع وزراء، سفراء مع سفراء، قناصل مع قناصل، نقابات مع نقابات لكن لا يمكن أن يحدث أن يتفاهم رئيس دولة مع مدير ادارة أو سكرتير محافظة!! يقول ان هذا لم يصل الى مستوى التفاهم معى. يمكن أن يتفاهم مع شخص فى مستواه...

ولكن الله لم يفعل هكذا مع يونان. لم يقل: أنا لا أتفاهم معه مباشرة. يمكننى أن أرسل له ملاكا أو نبيا مثله، أو أرسل له حوتا آخر ليتفاهم معه! انما تنازل الله ليتفاهم مع يونان، ويتفاهم معه مباشرة بلا وسيط ... ويقنعه.

ولعل البعض يسأل: وما الذى يحوجك يا رب أن تتفاهم مع يونان وتقنعه؟! انت الاله الكلى الحكمة، والمفروض فى يونان أن يؤمن بحكمتك. ويؤمن ان تصرفك سليم دون نقاش. وليس من الضرورى ان تقنعه. تكفى حكمتك. واذا كان هو لا يؤمن بحكمة تصرفاتك فانه يكون قد أخطأ خطأ جديدا يحتاج الى عقوبة ... يونان يجب عليه الطاعة والخضوع، وليس من حقه الجدل مع الله، والتفاهم!

ولكن الله ليس من هذا النوع. انه حنون وطيب. يقول انا أنزل الى يونان لكى ارفعه من مستواه.

أنا اتفاهم مع يونان لكى أكسبه. لا أريد أن أخسر هذا التراب.

اريد أن اربح الكل، عن رضى وليس عن ارغام. لا بد أن يتمتع يونان بسعة صدرى، ويدرك انى لا أضيق به مهما شرد.

إن قصة الله فى العهد القديم هى قصة تفاهم . وما إرساله للأنبياء والرسل إلا محاولة منه للتفاهم .

الله لا يفرض مشيئته ولا يستبد فى تصرفاته . إنه مثال للتفاهم . وحتى فى معاملته لنا الآن يريد أن يتفاهم .

لقد أعطانا الصلاة كى نتفاهم معه .

لو كان الله لا يميل إلى التفاهم، فما فائدة الصلاة والحديث معه والمناقشة . . . أليس حقا أنه لم يسمح لنا فقط أن نتفاهم معه، بل سمح أيضا أن نصارعه ونجاهد معه ؟! ألم يصارعه يعقوب حتى الفجر قائلا له «لا أتركك . . .»؟! كما لو كان له سلطان أو له قدرة ألا يتركه!

بلغ من تواضع الله، أنه تفاهم حتى مع الشيطان! . . نلاحظ هذا واضحا فى قصة ايوب الصديق . الله يقول للشيطان «هل وضعت قلبك على عبدى أيوب ؟» ويجيب الشيطان «أمجانا يعبد أيوب الرب ؟» . ويأخذ الشيطان سلطانا من الله أن يجرب أيوب لكى يثبت صحة كلامه .

إنه مبدأ تكافؤ الفرص يتمتع به الشيطان أيضا .

وظهر تفاهم الله مع الشيطان أيضا فى التجربة على الجبل . وظل الرب يرد عليه آية بآية . ولم ينتهره إلا عندما جاوز حدوده بما لا يطاق . . .

وللآن، يريد الرب أن يتفاهم معنا، ونحن الذين نرفض .

درس آخر نأخذه من قصة يونان، وهو أن كل تدابير الله قد آلت إلى النجاح:



كان الجو كله مظلما . الجميع فى حاجة إلى توبة وإلى هداية . وبدأ الله يعمل مع الكل ومن أجل الكل . **ونجح فى كل تدابيره: مع أهل السفينة ومع أهل نينوى، ومع يونان،** اقتادهم كلهم إلى التوبة وإلى معرفته، إذ عمل مع كل منهم بالطريقة التى تناسبه . إن سفر يونان هو قصة نجاح لعمل الله . . .

وهذا يعطينا بلا شك شعورا بالإطمئنان

إذ نثق أن الله يريد، وأن الله يستطيع، وأنه يمكن أن يقتادنا إلى التوبة مثل هؤلاء جميعهم . . .

عندما اعتمد يونان على نفسه فى تدبير أموره، وعندما اعتمد على عقله وارادته الخاصة، فشل على طول الخط، ولكنه عندما استسلم إلى يد الله، أمكن أن يعمل الله به عملا، وعملا ناجحا .

ليتنا نأخذ من هذه القصة درسا فى حياة التسليم والطاعة . .

كتب صدرت
للبابا شنوده الثالث

إنطلاق الروح
شريعة الزوجة الواحدة
الوصايا العشر
الخلاص فى المفهوم الأرثوذكسى
مار مرقس الرسول
القمص ميخائيل إبراهيم
يونان النبى
تأملات فى حياة الأنبا أنطونيوس
آدم وحواء - قايين وهابيل
كلمات المسيح على الصليب
تسبحة أسبوع الآلام « لك القوة والمجد »
خميس العهد
الجمعة الكبيرة
كيف نبدأ عاماً جديداً
من وحى الميلاد
تأملات فى الميلاد
اليقظة الروحية
السهر الروحى
الرجوع إلى الله
حياة التوبة والنقاوة

كلمة منفعة — أجزاء

يستجيب لك الرب

الوجود مع الله

الله وكفى

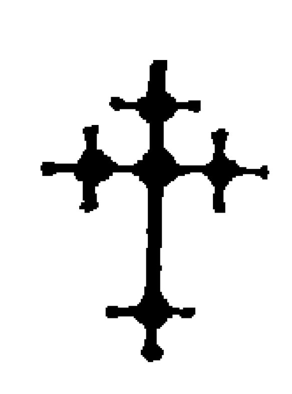
سنوات مع أسئلة الناس (جزئين) .

حـــياة الإيمـــــان .

حـــروب الشـــياطين .

الكهنـــــــوت .

مقالات روحية نُشرت بجريدة الجمهورية .



باسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

إن اهتمام الكنيسة المقدسة بقصة يونان النبي مع أهل نينوى ، فاق اهتمامها بكثير من قصص الكتاب ...

فأقامت لها صوماً من ثلاثة أيام ، يصومه الكل في نسك شديد ، و يعيدون بعده عيداً ، ويجعلونه مقدمة للصوم الكبير ، يسبقه دائماً بأسبوعين كتمهيد له ، وله نفس ألحانه .

كما وضعت الكنيسة ألحاناً تناسب هذا الموضوع يرتلها المؤمنون العابدون ...

فما الذي تحويه قصة يونان ونينوى من تأملات روحية نافعة للنفس ؟

وكيف كانت مثالاً للتوبة ، ومثالاً لعمل الله من أجل خلاص أنفس رعيته ، سواء كانوا على مستوى الأمميين أو على مستوى الأنبياء ... ؟

وكيف ينجح الله دائماً في عمله لكسب الناس ، بكل احتمال وطول أناة ... ؟

هذا ما تحاول هذه الصفحات أن تشرحه ... نقدمها لك كمجرد باب نفتحه لتأملاتك الخاصة ...

شنوده الثالث